

تطور الفكر الجغرافى
عند
جمال حمدان

إعداد وتقديم
الدكتور عبد الحميد صالح حمدان

عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

"بالعلم وحده تحيا لشعوب". لقد كانت هذه العبارة تتردد على لسان جمال حمدان، وكانت شعاره منذ أن شب عن الطوق، واتخذ سبيله إلى البحث العلمي والتدريس الجامعي الذي كان يؤمن بأنه الساحة الطبيعية لخلق أجيال تحمل عبء العلم القائم على أساس التفكير السليم وحرية البحث وتعدد الثقافات واستيعاب المعارف.

وكان لاطلاعه الغزير على تراثنا الحضاري العربي والإسلامي وكذلك وقوفه على طرائق التفكير في الغرب، أكبر الأثر في حياته العلمية والعملية التي قامت على الحقائق الدقيقة واتباع المنهج الموضوعي المحايد والمدعم بالرؤى الصحيحة والموثوقة.

ولقد كانت الجغرافية هي منطلقه الأول إلى رحاب العلوم الواسعة. فقد أولع بهذا العلم وهو في المدرسة الثانوية، واكتشف استعداده الفطري وحبه لهذا العلم. وقد لازمه هذا طوال حياته، فكانت الجغرافية بالنسبة له علم خالد من الأزل, وخالد لأنه حتمي لا مفر منه ولا بديل عنه، وأصبحت عنده قمة علوم الثقافة بل وعلم الثقافة الأول مثلما هي أم وسيدة العلوم الاجتماعية دون منازع، فهي لا تقل جدوى عن العلوم الطبيعية على حد قوله. وكانت الجدوى العلمية

لدى جمال حمدان تعني مدى فائدة أي علم للحياة العملية والإنتاج المادي. وهو يؤكد في كتاباته أن الجغرافية "قد لا تكون قمة العلوم، ولكنها بالتأكيد قمة الثقافة، بل وهي أعلى مراحل الثقافة، وعلم الثقافة الأساسي، بدونها فالمرء غير مثقف مهما فعل، وبها فهو مثقف مهما قصَّر. ومن هنا كان منهجه يتمثل في إخضاع الجغرافية للثقافة بينما العلم البحت يخضع الثقافة للجغرافية.

وقد انطلق جمال حمدان في أعماله العلمية من بديهة ذات ثلاث شعب: **الخلق والابتكار والتجديد**. وكان يؤمن بأن الموهبة في العلم هي المدخل إلى كل جديد فيه، وأن هذه الموهبة العلمية لا تعيش في فراغ ولا تبزغ من العدم، **وإنما غذاؤها وخبزها اليومي هو القراءة والتفكير**، وأن هناك ثمة علاقة طردية بين أطراف هذه الثلاثية: **الموهبة والقراءة والتفكير**، وأن محصلتها النهائية هي التقدم العلمي والرقي الحضاري.

وقد أوردنا في هذا الكتاب عدة فصول من مؤلفاته التي تناول فيها علم الجغرافيا بالبحث والاستقراء، والتي تدلل على تطور فكره الجغرافي, وولعه بهذا العلم وسعيه إلى الارتقاء بطرائق تفكيره وشرحها لعامة القراء والباحثين.

وقد ختمنا هذا الكتاب بمقطوعات مأخوذة من مذكراته الخاصة التي تناولت الجغرافية من منظور فكري متطور وبأسلوب سهل ممتنع..!

والله سبحانه وتعالى هو الملهم للصواب والموفق للرشاد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور

عبد الحميد صالح حمدان

الفصل الأول

ما هـــــي الجغرافيـــــة؟

هذه الجغرافية[١]

من أبرز خصائص التفكير الجغرافي المعاصر الاهتمام الملتهب بهذا السؤال البسيط ما هي الجغرافية؟ وهذا في الواقع رد فعل طبيعي لحالة البلبلة الفكرية والخلط الذي يَرِينُ على معظم الأعمال الجغرافية، فكلنا يدرك تماما أن الجغرافية علم يدرس ظاهرات عديدة قد تختلف تماما؛ وبذا لا يصبح موضوعه متجانسا بل متنافرا يجمع الأضداد، كما أنه كذلك ولذلك يجمع مادته الخام من كل العلوم على الإطلاق، ولهذا وجد أصحاب الجغرافية أنفسهم متهمين أمام أصحاب العلوم الأخرى كلها باتهامات خطيرة حقا تهددهم في صميم كيانهم:

الاتهام الأول: كيف يمكن لعلم واحد أن يدرس في وقت واحد كل الظاهرات المتنافرة كالصخور والقبور، والأديان والسكان، والسلالات والعادات، والسياسة والفراسة والغابات والغزوات، إن العلم الذي يجمع بين كل ذلك لا يمكن أن يكون علما متجانسا لأن ظاهراته متنافرة متناقضة! بمعنى آخر: أين الوحدة الداخلية الأساسية في هذا العلم؟ إن لكل علم موضوعا معلوما فللاقتصاد ظاهراته الموحدة وللكيمياء مجالها الموحد, وهكذا.

الاتهام الثاني: إذا كان هذا العلم المزعوم يستمد مادته الخام بلا استثناء

(١) مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – عدد ديسمبر ١٩٥٧م.

من العلوم الأولية المعنية، فما وجه الأصالة والجدة فيه؟ ما الذي يميزه عن تلك العلوم الأولية؟ بمعنى آخر: ما الذي يعطيه الاستقلال وتفرده كعلم؟ ومن هنا جاء الاتهام بكونه علم عالة على غيره، علم طفيلي متلصص.

إن العلم الصحيح تماما كالدولة السليمة يقوم على أساسين: الوحدة الداخلية بين أجزائه المختلفة، والاستقلال الخارجي عمن سواه.

هذه الاتهامات الموجهة إلى الجغرافية لم تأت من الخارج فحسب، بل إن كثيرا من الجغرافيين النابهين أعلنوا شكوكهم الخطيرة، بل إن جغرافيا كبيرا أعلن في خاتمة حياته أنه بعد طول المطاف والرحلة في المادة انتهى إلى أنه لم يجدها وقرر أن يبحث لنفسه عن عمل آخر!!

إزاء هذه الشكوك واليأس والسخط كان طبيعيا أن يطغى الاهتمام بالميثودولوجيا أي بفلسفة المادة والمسائل المنهجية على المادة نفسها، وقد كان للمدرسة الألمانية وعلى رأسها فيلسوف الجغرافية الأكبر ألفرد هنتر القَدَحُ المُعَلَّى في ميدان هذا الجدل المنهجي، فقد بدأ هذا الجدل منذ أوائل القرن الحالي وتوجه هنتر بكتابه المشهور عام ١٩٢٧ Die Georgaphie Ihre Geschiche, Ihr Wesen und Ihre Methoden وبه تحددت ماهية الجغرافية في تحديد جمع المدرسة الألمانية جمعاء على كلمة سواء بحيث أصبحت تمثل جبهة واحدة، وأصبح هذا العلم بمثابة إنجيل المادة.

والآن ما هي الجغرافية؟

١ - **قالوا:** إن الجغرافية هي علم الكوكب الأرضي وذلك لأنهم اتبعوا المعني الحرفي لكلمة Erkunde في الألمانية والمقطع Geo في جغرافية، ومعنى هذا أن تدرس الأرض ككل أو ككوكب أي من وجهة نظر فلكية. وهذا

خطأ واضح، ولا زال أثره باقيا في شكل الجغرافية الفلكية أو الرياضية المزعومة فهي ليست جغرافية ولكنها جزء من العلوم الفلكية وقد ألقى بها الجغرافيون منذ أمد طويل، والمهم أن اهتمامنا بالأرض في الجغرافية لا يأتي من ناحيتها الفلكية ككوكب وإلا لماذا لا نسمع جغرافية المريخ؟ إن الأرض تنفرد بين الكواكب بعنصر هو الذي يعطيها قيمتها للجغرافي: الحياة والإنسان، ولهذا فإن الجغرافية لا تدرس الأرض ككوكب ولكن تدرس فقط سطح الأرض الذي نعيش عليه في حدود ما "تخبر" في الغلاف الغازي من أعلى وفي أعماق الأرض من أسفل، وهكذا نجد أن المدلول الحرفي لكلمة جغرافية هو اسم على غير مسمى.

٢ – **قالوا أيضا:** إن الجغرافية هي علم وصف الأرض، ويكفي أن نذكر كلمة الجغرافية الوصفية ولكن الوصف ليس بعلم، فهو يرتد بالجغرافية إلى جغرافية الرحلات والطبوغرافيا أو جغرافية الرءوس والخلجان بما فيها من غرائب الأقطار، ولو أن الوصف أساس لكل علم لأنه يقدم المادة الخام إلا أنه وحده لا يكفي لأنه سطحي أجوف غير تعليلي تحليلي، ولا يعطي وحدة داخلية للظاهرات المختلفة كما أنه يدعو إلى الذاكرة لا إلى العقل.

٣ – قالوا: إن الجغرافية هي علم العلاقات أي العلاقة بين البيئة والإنسان، وهذا تعريف أخطر من سابقيه، لقد حاول كثير من الجغرافيين طوال تاريخ فهم العلاقات المركبة التي تقوم بين الظاهرات المختلفة التي يدرسونها في المكان الواحد، العلاقات المركبة بين النباتات والفواكه والحيوان والمناخ والسكان والصخور والرياح.. إلخ، والواقع أنه كان لا محيص للجغرافيا منذ أن اتخذت مبدأ النسبية العلمية أساسا من أن تهتم بالعلاقات السببية التي تقوم بين

ظاهراتها المختلفة، وحين ظهرت اتجاهاتنا إلى طرد الإنسان من الجغرافية اشتد الإقبال على فكرة العلاقات؛ لأنها الضمان الوحيد لإعادة الإنسان إلى حظيرة الجغرافية. وقد بدأ هذا الاتجاه والتوجيه على يد راتزل وإن لم يعرف هو الجغرافية بعلم العلاقات، واستمر التيار جارفا على يد من تبعوه حتى جاء باروز بتعريف الإيكولوجيا البشرية وقبله فلير وغيره، والغريب أن الاهتمام بالعلاقات في ألمانيا مهد الجغرافيا عامة ومهد هذا التوجيه خاصة ولم يطل إلا لبضعة عقود، انقرض بعدها تماما في كتابات الألمان المنهجية، هذا بينما انتشر التعريف خارج ألمانيا انتشارا هائلا, وظل حتى وقت قريب جدا في الجامعات, ولا زال متفشيا في المدارس الثانوية التي تعتبر معقلا حقيقيا لتعريف الجغرافيا كعلم العلاقات بين البيئة والإنسان، ولكن أثبتت المدرسة الألمانية فساد هذا التعريف، وإن يكن الاعتراض ليس على دراسة العلاقات في الجغرافية، ولكن على اعتبار هذه العلاقات وحدها موضوع العلم، ويمكن تلخيص نقد تعريف علم العلاقات في أربع:

أ – يخلق هذا المذهب بطبيعته تعارضا لا مفر منه بين البيئة والإنسان، فإذا اعتبرنا البيئة الطبيعية هي العامل الجغرافي كما قيل فإن الجغرافية تصبح تأثير هذا العالم على الإنسان – أي تصبح جغرافية التأثيرات وجغرافية الضبط التي تتألف من سبب ونتيجة، من فعل ورد فعل، ضوابط طبيعية واستجابات بشرية, مثال: البيئة جبلية إذن الحرية والاستقلال أساس التنظيم السياسي. البيئة بحرية إذن الديمقراطية أساس الحياة السياسية.. وهكذا.

ومعنى هذا أننا نبدأ بفكرة قبلية من الحتم البيئي الساذج والقدرية الميكانيكية لأن البدء من اعتبار العوامل الطبيعية لا يمكن إلا أن يؤدي إلى

احتمالات فقط أما التقرير النهائي فمتروك أخيرا للإنسان، وعلى هذا فالطريق السوي هو العكس: أن نتخذ نقطة الابتداء من الظاهرات البشرية نفسها فنصنفها ونتتبعها إلى جذورها الجغرافية، فهذا أدنى إلى أن نتعرف على كل العوامل التي تدخل في العلاقة وتقلل من خطر أن ننسب تأثيرا حتميا غير موجود حقا إلى العوامل البيئية.

ولهذا بعد أن كنا نسمع عن تلاؤم الإنسان للبيئة سمعنا عن ملاءمة الإنسان لبيئته وظهرت مدرسة الإمكانية محل الحتم. ولكن لا ننسى في خِضَمِّ التعارض بينهما أن كلا منها مدرسة إيكولوجية، وأنه سواء أخذنا بالأولى أو الثانية فإن علما يدرس العلاقات إنما يأمر طالبه بالبحث عن مثل تلك العلاقات وإيجادها؛ لأن النجاح هنا هو في إبراز تلاؤم بيئي لا نفيه! وهذا يستلب الطالب موضوعيته وعدم تحيزه ويقوده به إلى الدوجماطيقية، وعلى العموم فإن الجغرافية كعلم العلاقات لا يمكن إلا أن تلقى إلى الغموض بعنصر النسبية الذي هو أساس في فكرة السببية العلمية، فإذا كان بعض غلاة الحتم قد أبرزوا هذا الخطر فإن رد الفعل بين بعض غلاة الحرية كاد يؤدي إلى خطر أشد وأنكى وهو نكران السببية العلمية بإنكار أي فاعلية للبيئة الطبيعية، والغريب أن منهج البيئات للصف الأول الثانوي يوجه المدرس إلى دراسة الصراع بين البيئة والإنسان!! ولكن لماذا الصراع؟! إذ ينبغي ألا نخاطب التلاميذ عن البيئة كفاعل والإنسان كمفعول به أو العكس – إنما هما مضاف ومضاف إليه!!

ب – إذا كانت الجغرافية هي علم العلاقات والإيكولوجيا البشرية فإنها منطقيا لا تهتم بأي من الظاهرات الطبيعية أو البشرية إلا في مدى علاقاتها بعضها ببعض، وحيث إن الجغرافية البشرية هي بالضرورة مشبعة بالعوامل

الطبيعية فهي تحقق هذا الشرط؛ ولذا تستقر في صميم الجغرافية. أما الجغرافية الطبيعية فهي في حد ذاتها ليس دراسة علاقات ولا تتعرض بالضرورة للإنسان وارتباطه بها. ولذا فليس هناك ما يفرض على الجغرافية منطقيا دراستها. بمعنى آخر تصبح الجغرافية هي الجغرافية البشرية، بينما تخرج الجغرافية الطبيعية طريدة من نطاق علم الجغرافية، فالجغرافية إذن هي بشرية على الإطلاق، وهذا الانتهاء المنطقي وصل إليه وعبر عنه بكل وضوح وقوة مجموعة من الجغرافيين اليابانيين الذين أعلنوا أن الجغرافية الطبيعية لم تعد جزءً من الجغرافية وأن مكانها في العلوم الأخرى, وأن ما يتبقى للجغرافية هو على الإطلاق الجغرافية البشرية، ويعلق البعض على هذا بأننا نريد أن نأخذ الـ Geo من الجغرافية! فهل هناك من هو مستعد لتحمل تبعة إلقاء الجغرافية الطبيعية كلية خارج الحظيرة!! إن استبعاد الجغرافية الطبيعية لا يمكن أن يكون دعوة جدية لأن دراسة تلاؤم الإنسان والبيئة تتطلب معرفة البيئة، وأي جغرافية بشرية لا تقوم على أساس صلب من الجغرافية الطبيعية لا يمكن إلا أن تكون قائمة على الرمال. وهل قبل ظهور الإنسان من ناحية، وفي المناطق الخالية تماما من السكان من ناحية أخرى، أليس هناك "جغرافية"؟ ألم يكن للأمازون جغرافية بحتة قبل الكشف؟ كيف نعلق وجود علم "أشياء" على وجود أو عدم وجود الإنسان، أفي البدء كانت الجغرافية أم التاريخ؟..

جـ - هل يمنح تعريف العلاقات العلم وحدته التي لا غنى عنها؟ إن التنظيم الوحيد الممكن لمادة علم العلاقات هو تصنيف مجموعات العلاقات وتأثيرات البيئة على الإنسان إلى فئات بحسب كل واحد من العوامل الطبيعية فيكون هناك فصل لتأثير المناخ على الإنسان وآخر للتضاريس.. وهكذا ولكن

في كل من هذه الفئات لا نجد أساسا لتنظيم موحد لكل أنواع العلاقات المختلفة ولذا لا يمكن لهذه الفئات أن تتميز بوحدة فيما بينها كذلك يتمخض هذا التنظيم عن موسوعات ضخمة أشبه بالكاتالوجات وأخيرا يؤدي إلى تشتت العلم. فمثلا نجد في كتاب "البيئة" المقرر على الفرقة الأولى الثانوية أو في أي كتاب مشابه إما أن الشيء الوحيد الذي يربطه بالبيئات هو العنوان الخارجي وإما مادتها, فبينما نجد الكتاب يتكلم عن بيئة الجبال (أساس طبيعي) نجده يتعرض للبيئة الزراعية (أساس اقتصادي حرفي) ثم عن بيئة البحر المتوسط (مجرد منطقة معينة) فأين الوحدة في كل هذا الخلط؟!

د – هل يمنح التعريف الإيكولوجي للجغرافية استقلالها وكيانها المستقل كعلم منفرد متمايز عن بقية العلوم؟ إن كل العلوم الأولية التي تدرس الإنسان لابد أن تقيم علاقتها مع طبيعة سطح الأرض إن أرادت أن تتفهم الأحوال الاجتماعية المختلفة للمناطق والأماكن المختلفة – فللتاريخ بل عليه أن يدرس العوامل الطبيعية لتفهم الحوادث المنفردة كخط سير حملة أو التغيرات الإقليمية في معاهدة صلح.. أو لتفهم مجرى التاريخ عامة. ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يتجاهل البيئة التي يقع فيها المجتمع. فدراسة العلاقات الإيكولوجية لا يمكن أن تكون حكرا لعلم.

وهذه النظرة الإيكولوجية إلى الجغرافيا هي التي أدت إلى اعتبارها في الدوائر العلمية الخارجية طفيلية فضولية لا كيان لها أو استقلال لها.

والخلاصة أن علما مستقلا لا يمكن أبدا أن يتخذ موضوعه مجرد العلاقات السببية، ولكن ينبغي أن يضع نفسه نصب دائرة معينة من الحقائق يحددها أولا ثم يسعى بعدها وراء العلاقات السببية، ولا شك أن فكرة الجغرافية

كدراسة للعلاقات قد فشلت في أن تمد المادة بأهداف ملموسة كافية أي بظاهرات محسوسة لدراستها أو بنظام أو منهج خاص متميز، والسبب في هذا حقيقة كبرى أهملت تماما؛ فكان الخلط والبلبلة، وهي أن الإيكولوجيا ليست علما ولكنها منهج بحث علمي.

٤ – هل الجغرافية بعد ذلك هو علم التوزيعات كما قالوا؟ اقترح البعض أن الجغرافية هي أساس علم التوزيعات – علم هدفه توزيع الظاهرات المختلفة منفصلة أو متصلة على سطح الأرض، ولكن لهذا التعريف مثالب ثلاثة:

أ – إذا كانت الجغرافية علم التوزيعات فما حدودها، إن كل شيء على سطح كوكبنا يقع بالضرورة في مكان! أي أن لكل شيء توزيعا! وهكذا تصبح الجغرافية بحرا لا ساحل له، من دخله كان مفقودا ومن خرج منه كان مولودا! إذ تشمل كل ما على الأرض وكل ما تحت الشمس, ويصبح لا مانع من أن ندرس في الجغرافيا توزيع المدارس الأدبية أو توزيع حقوق المصير في العالم أو توزيع الجوارب النايلون!! بمعنى آخر هذا التعريف لا يخبرنا أي الظاهرات يمكن أن تعتبر ذات مغزى جغرافي أي أنه فاقد للأساس الانتخابي للظاهرات, وهو بذلك جدير بأن يخرجنا عن نطاق الجغرافية. فهذا التعريف أكثر من جامع وأقل من مانع، وفي ظله تصبح الجغرافية علم سطحي لا يمكن أن يكون محترما لأنه يستهدف معرفة كل شيء عن كل شيء.

ب – لا يعطي هذا التعريف الجغرافية وحدتها فالتوزيعات تجمع بين ظاهرات متنافرة كل التنافر بين صخور ومياه وهواء وتيارات ومحاصيل وعادات ولغات وأجناس.. والتوزيع في حد ذاته لا يمدنا برباط مشترك من الاهتمام، وفي ظل هذا التعريف يفتح الباب على مصراعيه لاتهام الجغرافية بأنها مجرد علم وأنها ليست أكثر من أجزاء من العلوم الأخرى.

جـ - لا يعطي هذا التعريف للمادة استقلالها العلمي لأن التوزيع ليس حكرا للجغرافية بل هو خاصية للأشياء ولذا ينبغي أن تدخله العلوم الأولية في دائرة بحثها وعرضها فعالم الحشرات أو النبات أو الجيولوجيا أو الاجتماع أو هاوي الطوابع أو العملة في حاجة إلى التوزيع إذ من الممكن توزيع ظاهراته على خريطة للعالم أو لجزء منه، وذلك حتى يصل إلى فهم أكمل وأفضل لقوانينها العامة، فالعلوم الأولية وإن تكن قياسية إلا أنها تحتاج إلى استعمال الطريقة التوزيعية الاستقرائية لسبب منطقي بسيط: وهو أنه لابد للقياس من الاستقراء. فالعلماء الأصوليون إذا وزعوا ظاهراتهم مكانيا لا يصبحون بذلك جغرافيين، ودعوى التوزيعيين من احتكار دراسة التوزيعات تناظر تماما دعوى الإيكولوجيين من احتكار دراسة العلاقات، فلا العلاقات ولا التوزيع بحكرٍ للجغرافية، بل كلاهما مشاع بين كل العلوم، لا ولا يمكن لأي منهما أن يمنح الجغرافية كيانا مستقلا، وكلاهما ببساطة منهج للبحث العلمي، والتوزيع والإحصاء صنوان: فالجدول الإحصائي خريطة رقمية، والخريطة التوزيعية جدول مرسوم! وليست الخريطة التوزيعية حكرا للجغرافي أكثر من الإحصاء للإحصائي.

ما هي الجغرافية إذن؟

بعد رحلة طويلة مضطربة عادة سفينة العلم على أعقابها لتستقر على تعريف كلاسيكي قديم للجغرافية - علم الكورولوجيا أو الكوروجرافيا كما قال سترابو، والكلمة مشتقة من Chore الإغريقية أي منطقة أو إقليم، ومن حسن الحظ أن هذه الكلمة لا تعتبر غريبة على اللغة العربية بعد أن دخلتها عن طريق الفارسية على الأرجح وتعربت في صورة كلمة "كورة"، وكانت الكورة كما هو

معروف أساس للتقسيم الإداري لمصر في كثير من فترات العصور الوسطى، ولا زالت تستعمل في بعض أجزاء العالم العربي حتى اليوم، وقد بعث التعريف الكورولوجي هذا هنتر، ومعنى هذا أن كل قصة الجغرافية تتلخص في كلمة واحدة عود على بدء! ومعنى التعريف الكورولوجي أن عمل الجغرافي هو أن يطالع سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها ويتعرف فيها على كل واحدة تفارقية ذات شخصية متميزة عن سواها فيحددها ويحدد محتوياتها ومقومات تلك الشخصية وأسبابها، والإقليم منطقة متجانسة داخليا متنافرة خارجيا، فهو يضمن الوحدة الداخلية للعلم، فلم يعنيهم عدم تجانس الظاهرات المختلفة العديدة، سواء الطبيعية أو البشرية، التي تملأ "الإقليم"، وهو يضمن استقلال العلم لأنه ليس هناك علم آخر يختص بدراسة الإقليم وتباين الأرض في أقاليم. والكورولوجيا بهذا تناظر التاريخ فوحدة الجغرافية الإقليمية ووحدة التاريخ الفترة كلاهما يستعيد حقائقه اللامتجانسة من العلوم المختلفة ولكن يوحد بينها ويمنحها استقلالها في هذا الإطار المكاني أو الزماني. فلا تنساح الجغرافية في إعطاء الشخصية للإقليم فإذا كانت بشرية ننتخب تلك التي لها علاقة إيكولوجية ثابتة بالأساس الطبيعي، ومعنى ذلك أن الكورولوجيا تستوعب وتستخدم العلاقات الإيكولوجية كمقياس لتحديد المغزى الجغرافي للظاهرة البشرية التي تعرض لنا، فمثلا تعدد الزوجات حقيقة اجتماعية إلا أن هذا التعدد قد يختلف من منطقة إلى أخرى، فهل لهذا الاختلاف قيمة جغرافية؟ وهل ندرسه كأحد العناصر والمقومات التي تساهم في تمييز المنطقة عما سواها؟ إذا لم تكن الفوارق في نسبة تعدد الزوجات راجعة إلى أسباب وأصول جغرافية قائمة في البيئة الطبيعية، ولكنها مجرد فوارق عشوائية

بالصدفة، فليس لها أي قيمة جغرافية وتنبذ من عناصر دراسة الإقليم. ولكن لابد أن نبحث العلاقة الإيكولوجية أولا ولنضرب مثلا: في وسط الدلتا ترتفع النسبة في الشمال، في مراكز (البراري)، ويمكننا بالاستقصاء والاستفتاء أن ندرك تماما أن السبب في ذلك هو الحاجة إلى الأيدي العاملة لاستصلاح الأرض، وأن القيمة الاقتصادية للأسرة تكاد تتناسب تناسبا طرديا مع حجمها، ولذا يلجأون بوعي هادف إلى تعدد الزوجات، هنا تقوم للظاهرة الاجتماعية دلالة جغرافية، فهي تعبير بشري عن قوى طبيعية كامنة، **وكثيرا ما تكون الطبيعة خرساء، ولكنها تتكلم خلال الإنسان وعلى لسانه.**

هكذا تتحدد العناصر التي تدرس في الإقليم، ولا شك أن تركيب العناصر المختلفة على بعضها البعض لتكوِّن الإقليم عملية صعبة معقدة, ولكنها لا تمنع من أن الإقليم هو قلب الجغرافيا، ويجب أن يسود في جميع مراحلها وفروعها، فمثلا في الجغرافية الاجتماعية لا ندرس العلاقة المطلقة بين البيئة والإنسان فهذا علم الاجتماع، وإنما نسعى إلى تمييز أنماط اجتماعية متمايزة محددة في إطارات إقليمية، أي نسعى إلى استجلاء وتحديد الشخصيات الاجتماعية إقليميا، بشرط أن نرد مقومات هذه الشخصية الاجتماعية إلى أصول بيئية مباشرة أو غير مباشرة فمن منها لا ارتباط إيكولوجي له استبعدناه من هذه الشخصية باعتبارها غير ذات موضوع أو دلالة جغرافية.

الفصل الثاني

في الشخصية الإقليمية

إن تكن الجغرافيا في الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هي "التباين الأرضي Areal differentiation"، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات، فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على "شخصيات الأقاليم Personality regional". وإذا كان الإقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا، فمن المنطقي أن تكون الشخصية الإقليمية هي قلب الإقليم، ومن ثم بيقينٍ أعلى مراحل الفكر الجغرافي(١).

والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، أي شيء أكبر من مجرد جسم الإقليم وحسب. فهي إنما تتساءل أساسا عما يعطي منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، محاولة أن تنفذ إلى "روح المكان" لتستشف "عبقريته الذاتية" التي تحدد شخصيته الكامنة. وهذا هو فكرة الهيكل المركب Compage عند بعض الجغرافيين الأمريكيين أو ما يعرف كاصطلاح عام "بعبقرية المكان .genius loc".

وإذا كانت ميزة وميسم الجغرافيا وصميم أصالتها، وهي أيضا ما ترد به دَيْنَها للعلوم الأولية التي تأخذ منها، هي أنها كما يقول لابلاش: "**فن عدم فصل ما وصلت الطبيعية**"، فإن هذا لا يتبلور كما يتبلور في دراسة الشخصية الإقليمية. إن روح المكان– نحن نَخْلُص– هو أكثر من أي شيء آخر روح الجغرافيا كما تحدث عنه مثلا مؤلفا كتاب "روح الجغرافيا وهدفها".

---

(١) شخصية مصر، ج ١، ص ١١ – ٤٧، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠.

ومن الواضح بعد هذا أن مثل هذه النظرة ليست تحليلية وحسب وإنما هي تركيبية في الصف الأول، نظرة واسعة عالمية Weltanschauung كما يقول الألمان أو كلية Holistic بتعبير سمطس الشهير (Hlism). إذ لا شك أننا إذا كنا نريد أن نقتنص روح المكان ونمسك به وهو فوار نابض بالحياة حتى نضع أيدينا في النهاية على "كلمة السر" في الإقليم وعلى مفتاحه أو "شفرته" التي تمنحه أخص خصائصه وتفتح أعمق أعماقه، فإن المطلوب إذن إنما هو دراسة للكائن العضوي وهو حي غض وفي مجموعة ككل مُتَعَضْوِنٍ وليس كتحليل أو كتقطير إتلافي يمزق أو يفتت هذا الروح ولا كفحص تشريحي لجثة ميتة أو محنطة Post- mortem.

ليس هدفنا، يعني، أن نشرح المكان لنقدم عن أعضائه وأجزائه موسوعة كتالوجية وصفية، أن تكن صافية وافية إلا أنها خاملة راقدة. ولكن الهدف أن نعتصر روح المكان ثم نستقطره في أدق مقولة علمية مقبولة ويتركز في أكثف كبسولة لفظية ممكنة. ولمثل هذا فنحن بحاجة إلى جغرافية تركيبية في المقام الأول، جغرافية علوية رفيعة، قل "سوبر – جغرافيا Super – geography"، لا تقف عند حدود وصف المكان بل تتعداه إلى فلسفة المكان.

بل إننا لنذهب إلى أبعد من هذا. إن هدف العلم، أي علم، وهو أيضا مقاييسه ومحكمه كعلم حقيقي، إنما هو الوصول من آلاف التفاصيل ودقائق الجزئيات وركام المعلومات إلى الكليات العامة والمعادلات المركبة أو البسيطة الضابطة والقوانين الأساسية الحاكمة. ولقد حاول آينشتين، على سبيل المثال، أن يختزل الكون كله في معادلة رياضية واحدة.

والجغرافية، لا ندري لا ندري لسوء الحظ أو لحسنه، علم الخاص specific لا العام generic، أو بلغة فلاسفة المعرفة علم تصويري idiorgaphic أكثر مما هو علم تقعيدي nomothetic، أو بلغة مبسطة علم

المتفرد المتوحد المطلق unique، sui generic لا النمطي المتكرر النسبي. فالجغرافيا كالتاريخ لا تعيد نفسها بالضبط، ولا الإقليم يكرر نفسه بصرامة. ومن ثم فلا "قانون" للإقليم من حيث هو، ولا سبيل إلى أن نطمع في وضع "أقانيم الأقاليم" كما قد نقول. ولكن على الأقل فلنحاول من الناحية الأخرى أن نصل، إن لم يكن إلى المعادلة الشاملة الأحادية الحاكمة، فإلى أنسب عدد من المعادلات الجزئية "ولوغاريتمات الجغرافيا" التي تعد مفتاح الإقليم وتختزل روح المكان فيه.

وعدا هذا، فمن الواضح كذلك إلى حد البديهي أن دراسة الشخصية الإقليمية لا تقتصر على الحاضر وإنما هي تترامى بعيدا عبر الماضي وخلال التاريخ، لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر عن الشخصية الإقليمية. فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحيانا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها. ولقد قيل بحق: إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان، بينما يضيف قول آخر أن معظم التاريخ إن لم يكن "جغرافية متحركة – moving geography"، فإن بعضه على الأقل "جغرافية متنكرة in disguise".

لهذا كله نجد أن البحث في الشخصية الإقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم، بل بحث فيه المؤرخون كثيرا ابتداء من الجيولوجي الأركيولوجي سيريل فوكس في مؤلفه المشهور "شخصية بريطانيا The Personality of Britain" إلى حسين مؤنس في "مصر ورسالتها" وشفيق غربال في "تكوين مصر" إلى صبحي وحيدة في "أصول المسألة المصرية" وحسين فوزي "سندباد مصري".

ولكن لعل طريق الجغرافي أكثر غنى وتنوعا مع ذلك في المناهج

والطرائق، وربما كان كذلك أرحب آفاقا حيث يجمع تلقائيا بين الزمان والمكان ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا ومن الفلك حتى الأنثروبولوجيا، وذلك إذا اقتصرنا فقط على ذكر أقصى فروع العلم المتطرفة وأطرافه الهامشية الحدية. وفضلا عن هذا فإن وحدة مصر الحقة إنما تتبلور في جغرافيتها الباقية، أكثر بيقين مما تبدو في تاريخها المفعم بالمتغيرات، والاستمرارية بالبديهة أبرز في جغرافيتها، فيما أن الانقطاع أغلب بالمقارنة على تاريخها.

لهذا وذلك نجد الشخصية الإقليمية مطلبا أثيرا بين كبار الجغرافيين ابتداء من لابلاش في مقدمته القيمة لكتاب لافيس عن تاريخ فرنسا "شخصية فرنسا الجغرافية" إلى أندريه زيجفريد في كتابه "سيكولوجة بعض الشعوب" ومن ماكيندر في "بريطانيا والبحار البريطانية" حتى حزين في دراساته الأصيلة المتعددة والوضاءة عن البيئة والموقع في مصر عبر التاريخ.

في طبيعة الجغرافيا

وإنه لطبيعي – أليس كذلك؟ – أن يكون للجغرافي كلمته في هذا المجال، وإلا فإلى من يتجه المواطن العادي والمثقف العام لمعرفة جوهر وطنه؟ إلى من سوى ذلك الذي "يتخصص في عدم التخصص" كما وصف، وهو هكذا وصف لأنه الأخصائي الذي يضرب بحرية في كل العلوم، يربط الأرض بالناس، والحاضر بالماضي، والمادي باللامادي، والعضوي بغير العضوي، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض – كل أولئك، وهذا تحفظ شرطي وشرط قطعي، من خلال وجهة نظر موحدة صارمة وأصيلة هي الإقليم والفكرة الإقليمية.

والجغرافيا بهذا ليست كما قد يبدو على السطح علما موسوعيا فضفاضا أو بحرا لا ساحل له، بل هي علم تكاملي بالضرورة، بل العلم التكاملي بامتياز. الجغرافيا إنما هي الجسر الذي يربط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، وتصل ما

فصل التخصص الأكاديمي الضيق. الجغرافيا، باختصار، ليست علم "من كل بستان زهرة omnium gatherum"، ولا الجغرافي هو "حاشد محتطب بليل rag-and- bone intellectual" وحتى إن بدت الجغرافيا على السطح علما موسوعيا، فإنها في الجوهر وبالفعل علم ملحمي على موسوعيته، علم العالم لا علم العلوم.

لا، وليست الجغرافيا بهذا مجرد علم معقد ناقل، شمولي دون إضافة كما قد يتوهم أو يهمهم أو يتبرم البعض. نعم، هي بالتعريف والتصنيف المنهجي علم مركب ثانوي لا أولي إلى أبعد حد. ولكنها في جوهرها الفلسفي علم بسيط أساسا، بل بسيط للغاية، تكاد تقول غريزيا أو فطريا، وإن شئت فقل هي بين العلوم علم الفطرة كما أن الإسلام بين الأديان دين الفطرة. والفطرة هنا هي أساسا فكرة الإقليم: الأرض مختلفة بطبيعتها، وما على الجغرافيا إلا أن تطالع وترصد وتدرس اختلاف الأَرَضِينَ: هذا كل شيء. ومن هذه الطبيعة ولا شك جاء قدم الجغرافيا منذ أول مراحل المعرفة الإنسانية، ثم كان خلودها بعد ذلك كعلم مستقل لا غنى عنه قط ولا بديل له على الإطلاق.

أما أنها علم ناقل فضولي متطفل على سائر العلوم جميعا، مجرد علم تسجيلي وثائقي، فليس صحيحا ذلك دونما تحفظ وعلى وجه الإطلاق. فواقع الأمر أن الجغرافيا بالدرجة الأولى علم "ميتابولي metabolic" إن صح التعبير، أعني علم تشرب وهضم وتمثل ثم إعادة إفراز وتشكيل وتخليق. أو قل هي علم تصنيع لا تعدين، إن أردت تشبيهها ميكانيكيا بدل البيولوجي. وحقا، قد لا تكون بهذا أو بذاك علما خالقا على مستوى الحقائق والمعلومات، غير أنها بوظيفتها الأساسية من الربط ورصد العلاقات تخلق جديدا بالتأكيد على مستوى الأفكار والأنماط. علم ناقل إذن كمعرفةٍ، خالق كفكرٍ. ولكن حتى عند ذلك قد يعترض البعض قائلا: بل إعادة خلق هو أكثر منه خلقا أوليا مطلقا. ولكن، حسنا، يبقى

مع ذلك أنه خلق في حدود إعادة الخلق - أليس صحيحا؟ والجغرافي بالتالي، وعلى أية حال، قارئ كل شيء، ولكنه كاتب جغرافية فقط، يأكل كل شيء omnivorous، غير أن معدته لا تفرز إلا جغرافية صرفا.

عن طبيعة الشخصية الإقليمية

الآن فإن من المحقق أن طبيعة الجغرافيا الكاملة الكامنة هذه لا تحقق في شيء كما تحقق في دراسة الشخصية الإقليمية. فليست الشخصية الإقليمية مجرد تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضي والإحصائي، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساسا - وما ينبغي لها غير ذلك - على مادة علمية موضوعية بحتة. إنها عمل فني بقدر ما هي عمل علمي، وذلك رغم ما قد يجده البعض في هذا من تعارض ظاهري فكما يقول جلبرت أحد دعاة الشخصية الإقليمية ووريث مدرسة أكسفورد: "إن الجغرافيا هي فن التعرف على شخصيات الأقاليم ووصفها وتفسيرها"، ويضيف أن "شخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطور وأن تتدهور ووصفها لا يقل صعوبة".

على أننا مع ذلك نرى أن "فن" تناول المادة العلمية لا يكفي وحده للتشخيص الإقليمي، بل لابد كذلك من إطار من "فلسفة المكان" يحدد تلك الشخصية. ولهذا فنحن أيضا مع دبنام حين يعرف الجغرافيا بأنها "فلسفة المكان". ومع أندريه شوللي حين يعتبر الفكرة الجغرافية "كنوع من فلسفة الإنسان باعتباره الساكن الرئيسي للكوكب الأرضي" ومع ماكيندر حين يتحدث عن "الجغرافيا الفلسفية" وذلك دون أن نذكر دعوة البعض المتطرفة إلى ما يسمونه geosophy. ولا يعني هذا أو ذاك فلسفة محلقة غامضة، بل فلسفة عملية واقعية concrete philosophy قد ترتفع برأسها فوق التاريخ ولكن تظل أقدامها راسخة في الأرض، فلسفة تحلق بقدر ما تحدق. والواقع أنه لا انفصال للجغرافيا بحال عن صيغة فلسفية ما منذ قال سترابو عنها: إنها من عمل الفيلسوف, إلى أن قال كون: "إنما الجغرافي الجيد فيلسوف".

ولكن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا منهجا خلاسيا متنافرا يتأرجح ما بين علم وفن وفلسفة، فإننا نبادر فنذكر بأن الجغرافيا نفسها وبطبيعتها علم متنافر غير متجانس في مادته الخام، وليس غريبا أن يكون كذلك في منهجه. ماكيدر، مثلا يعتبر الجغرافيا بوضوح فنا وفلسفة معا. هذا بينما يحسم ستامب لنا الموقف بإيجاز أبلغ من كل إطناب حين يقول: "إن الجغرافيا في نفس الوقت علم وفن وفلسفة" ويمكن أن نضيف للتوضيح: علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظرتها. والواقع أن هذا المنهج المثلث يعني ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة الفكر، من جغرافية الحقائق المرصوصة إلى جغرافية الأفكار الرصينة التي تخاطب العقل وتتوجه إليه وتقدم غذاء جيدا متوازنا للفكر أكثر مما تستدعي الذاكرة (أو تستعديها!) بالحشو الممل والسرد السقيم الذي يتحدى الذكاء والذاكرة معا وعلى حد سواء. الحقائق والمعلومات كغذاء للفكر وكوقود للعقل، ما يتبقى في الذهن بعد ركام التفاصيل والجزئيات اللانهائية ليصبح خامة يعمل عليها الوعي الباحث – ذلك هو أعلى أهداف ومراحل العلم.

وكما قلنا، لا تتحقق هذه الطبيعة المركبة كاملة كما تتحقق في الشخصية الإقليمية. والواقع أن دراسة الشخصية الإقليمية تبدأ حيث تنتهي دراسة الجغرافيا الإقليمية التقليدية بالمعنى المدرسي المعروف، ثم تتجاوزها لتمثل التتويج القمي والعلوي لها، فهي على مراحل الجغرافيا والفكر الجغرافي. فإذا كانت الجغرافيا الإقليمية تهتم أساسا بدراسة "جسم" الإقليم، فتتناوله على الطريقة الأكاديمية بالتشريح والتحليل لتحديد أقاليمه الثانوية ودون الثانوية وتصف معالمه وملامحه النوعية وتوزيعاته وعلاقاته المكانية، فإن هدف الشخصية الإقليمية هو "روح" الإقليم قبل جسمه وبعده، مثل جسمه وفوقه. الجغرافية الإقليمية العادية هي وصف المكان، حيث الشخصية الإقليمية هي فلسفة المكان. الأولى جغرافيا تقريرية، ولكن الثانية جغرافيا علوية تجاوزية. Super – geography, transcendental geog.

والحقيقة أن الملاحظ أحيانا أن الجغرافي قد يدرس على البعد أو على الورق إقليما ما دراسة أكاديمية مستفيضة، يحدد خطوط التضاريس والجيولوجيا ويحل المناخ والنبات والتربة, ويصنف ملامح الإنسان, ويصف معالم السكان والإنتاج والاقتصاد.. إلخ، حتى إذا ما أتاه زائرًا على الطبيعة وجد نمطا من الحياة الجارية اليومية يرتبط بصميم البيئة الجغرافية ولكنه هو شخصيا يجهله ولا تسعفه فيه دراسته السابقة تلك. هذه الحلقة المفقودة هي بالدقة روح المكان وجوهر الإقليم.

لهذا فإن المطلوب جغرافية حية، "جغرافية الحياة" بالدقة، لا بمعنى الجغرافيا الحيوية، ولكن بمعنى "جغرافية الحياة اليومية life geography everyday"، تلك الذي إذا عرفته عرفت كل شيء عن نمط وطبيعة وظروف وقوانين الحياة في هذا المكان أو ذلك، جغرافية الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة فإنها لا تتقاعس عن، أو تستنكف، أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم، باختصار جغرافيا تنسج الحياة اليومية ودورة حياة الناس الجارية في نمط الإقليم ومورفولوجية الأرض.

ودراسة الشخصية الإقليمية بهذا المفهوم لا تجب الجغرافيا الإقليمية العادية ولا تلغيها بالطبع، وإنما هي تكملها بل وتصحح عيوبها وقصورها، وكلتاهما على أية حال ناقصة بغير الأخرى. فهي بطبيعتها الديناميكية المتوثبة المتسائلة تدفع عن الجغرافيا تلك التهمة الشائعة من أنها علم "سكوني" جامد أو خامل، فتنفث الحياة في عظامها وتدفع الدم في شرايينها التي قد تتصلب أحيانا.

من الناحية الأخرى فليست الشخصية الإقليمية دراسة ذاتية غير موضوعية، ولا هي تقديرية بدل التقريرية، كما لا تعد من قبيل الأحكام القيمة judgement values، وإنما هي في الجوهر والأساس تقييم علمي للدور

الجغرافي، للنمط الجغرافي، وللفاعلية الجغرافية، إنها جغرافية طموح، تتجاوز الجغرافيا التقليدية ولكنها لا تتجاوز المكان ولا العلم.

دراسة مصر

والبحث الحالي – وله جذور أو ربما بذور في عمل سابق للكاتب يحاول أن يرسم صورة عريضة ولكنها دقيقة بقدر الإمكان لشخصية مصر. ومصر لا شك موضوع مثالي لهذا البحث نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع، ولما تملكه من تاريخ ألفي حافل. الغريب في الأمر، مع ذلك، أن مصر جغرافيًّا وبالمقاييس العلمية العالمية الرفيعة ما تزال إلى حد بعيد "أرضا بكرا" ولا نقول "أرضا مجهولة". الأغرب أن هذا يصدق على كلا المستويين الأكاديمي المتخصص والثقافي العام.

حقا لقد كتب شيء لا بأس به عن جغرافية مصر بمختلف اللغات، خاصة الأجنبية، ولعلماء أجانب غالبا، إلا أنه على قيمته وخطره مجرد نواة متواضعة نسبيا أو شظايا متناثرة هنا وهناك، والكل لا يعدو قطرة من محيط إذا كان المستهدف مكتبة جغرافية وطنية بالمعنى العالمي. وليس في العربية حتى الآن مرجع علمي واحد عن جغرافية مصر، مرجع جامعي أو فوق جامعي جدير بالكلمة. بل ولعلك واجد لدينا بالعربية كتبا جغرافية عن بعض البلاد الأجنبية أو العربية أضخم وأجل مما نملك عن مصر.

هنا في حين أن الجغرافيا ليست بالضرورة "عن البلاد النائية الغريبة"، ليست دائما شيئا نذهب إليه، وإنما هي ببساطة حولنا، تحيط بنا، ونحن فيها، كالهواء نتنفسها. الجغرافيا – كالإحسان – تبدأ ببيتك، "بجغرافية – الوطن home geography". فكل شبر من أرض مصر، كل قرية، كل حقل، كل تربة في الوادي، وكل جبل أو صخرة في صحارينا، ينبغي أن تغطى بمونوجراف مفصل مكثف على حدة.

الفصـــل الثالـــث

تاريـــخ جغرافيـــة المـــدن

تاريخ جغرافية المدن[أ]

نتتبع هنا بالتحليل والربط أهم الأعلام والعلامات التي حددت خط سير المادة. ويمكن أن نميز في قصة جغرافية المدن ثلاث مراحل تقريبية: **النشأة والتكوين والنضج.**

١ – **مرحلة النشأة.** إذا لم يكن للجغرافيا كعلم إلا تاريخ حديث لا يرتد إلى أبعد من منتصف القرن الماضي، فإن أصول جغرافية المدن أحدث، بينما تبلورها كفرع واضح في الجغرافيا هو أحدث وأحدث. ولا يزيد دور المدن منذ الفترة الكلاسيكية (ريتر – همبولت/ ١٨٠٠ – ١٨٥٩) حتى أواخر القرن عن الإشارة إلى "المدن الهامة" في الدراسات الإقليمية – عادة تحت عنوان "الطبوغرافيا"[١]. وهي تسمية على أساس لغوي[٢] وظلت شائعة حتى أواخر القرن الماضي. غير أنه ليس من الممكن ولا الإنصاف أن ننتظر أصول جغرافية المدن عند الرائدين لأن حياة المدن لم تكن تتعدى مرحلة الطفولة، فلم تكن الحقيقة المدنية بَعْدُ ظاهرة جغرافية كبرى في اللاندسكيب. ويكفي أنه حتى ذلك الحين لم يكن بالعالم إلا مدينة مليونية واحدة، ولم يكن في الإمكان التنبؤ بالمدن المليونية الحالية الثمانين أو نحو ذلك[٣] وربما كان راتزل F. Ratzel

---

(أ) انظر "جغرافية المدن"، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ن، ص ٣ – ٥٣.

(١) انظر مثل: Keane, A H, central & South America, Lond., 1911.

(2) Oxford Cnocise Dictionary, art., topography.

(3) Wooldridge, S, W, & East, W. G., Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950, p 24.

من أول من قام بمحاولة في "جغرافية مدن" منذ الأنثروبوجغرافيا Anthropogeographie في ١٨٩١. وهو الذي ندين له منذ ١٩٠٦ في "مقالات قصيرة "Kleine Schriften بالتفرقة بين فكرتين أساسيتين في الموضوع: الموقع Situation والموضع Site. ومن بعده أمكن اعتبار أوتو شليتر Sclüter المؤسس الأول لجغرافية المدن بمؤلفه ملاحظات على جغرافية السكن Bemerkungen Zur Siedlungsgeographie في ١٨٩٩. وكان أول كتاب يعالج جغرافية المدن العامة في مجموعها هو كتاب صغير ولكنه غزير المادة لكورت هاسرت K. Hassert في ١٩٠٧ بعنوان: المدن معالجة جغرافيا Die Städte geographisch betrachtet(١). فجذور - أم هي بذور؟ - جغرافية المدن تقع زمنيا في الفترة ما بعد الكلاسيكية Post – classical (١٨٥٩ - ١٩٠٥)، وهي منذ مولدها علم ألماني الموطن بالضرورة شأنها في ذلك شأن الجغرافيا عامة حتى ذلك الوقت.

يمكن أن نضم إلى هذه الفترة الريادية بعض الأعمال العامة المنعزلة التي قامت خارج ألمانيا مثل كتاب بول ميريو Meuriot: Des Agglomerations urbaine dans l'Europe contemporaine في ١٨٩٧، ثم بعض كتابات p. Clerget، ولكن بوجه خاص كتاب رينيه مونييه Maunier الهام: L'Origlne et la Fonction économique des Villes في ١٩١٠، ولو أنه يلاحظ أنه معالجة اقتصادية واجتماعية أكثر منه معالجة جغرافية، كذلك ينبغي أن نذكر أن نشاط علم الإحصاء الجديد ومن قبله "الحساب السياسي political arithmetic" القديم، والديموغرافيا في تلك الفترة قد ساهم من ناحيته نحو إمكانية تكوين جغرافية مدن، ولا زلنا في بعض فصول المادة نقابل بعض الأسماء مثل Adna Weber, Ravenstein, Graunt. وتمتاز أواخر هذه المرحلة في العقد الأول

---

(1) Chabot, G., Les Villes, Paris, Colin, 1952, p. 17.

من القرن الحالي بانتشار الاهتمام الشديد بالمدن في مجالات عديدة: هندسة التخطيط، الاجتماع، الاقتصاد، العلوم السياسية والإدارة.. إلخ. وقد أخذت الجغرافيا تتشابك مع بعضها وتتداخل فكانت عملية إخصاب متبادل، تميز معظم العلوم الناشئة في مراحلها الأولى. ويمكن أن نلاحظ في هذه الفترة بعضا من التساوق الخاص في التطور بين جغرافية المدن وبين علم الاجتماع خاصة.

فكما بدأت جغرافية المدن من الاهتمامات الإقليمية العامة أولا، بدأ علم اجتماع المدن Urban Sociology من الدوافع الرومانتيكية الإنسانية التي أثارتها عند بعض المصلحين الاجتماعيين الصورة الاجتماعية الكالحة لحياة الفقر بين عمال المدن الصناعية الجديدة في عصر الرأسمالية والتصنيع. وتكاد تتعاصر أولى دراسات "ومونوجرافات" اجتماعية على المدن مع المحاولات التأسيسية في جغرافية المدن: فبين ١٨٨٩، ١٩٠٩ ظهر "مسح" تشارلز بوذ Booth الشهير للندن: Life & Labour in London، ومسح راونتري Seebohm Rowntree لمدينة يورك Poverty: A Study of Town Life. ثم ظهر على غرارهما في الولايات المتحدة مسح اجتماعي لشيكاغو ثم لبستبرج[1]. فإذا كانت الجغرافيا قد بدأت من الإقليم، فإن الاجتماع بدأ من المجتمع – من حالة السكان. ولكن كان الاجتماع طوال هذه الفترة بعيدا عن اجتماع المدن بمعنى الكلمة، فهذا لم يظهر إلا بعدها، بمعنى أن جغرافية المدن أسبق على وجه اليقين.

٣ – المرحلة التكوينية Formative. يمكن أن نعتبر الحرب العظمى الأولى خط التقسيم بين مرحلة النشأة التأسيسية والمرحلة التكوينية. فقد بدأ الاهتمام بالمدن ينتشر بين الجغرافيين في صورة دراسات تفصيلية خاصة "مونوجرافات" عن كثير من المدن الهامة أو الميسورة. وكان أنطوان فاشيه

---

(1) Ericksen, E, Gordon, Urban Behavior, N. Y., 1954, p. 9.

Vacher أول من نشر في فرنسا دراسة لمدينة تفصيلية – Montluçon – في ١٩٠٤. ولكن الدراسات لم تتعدد إلا منذ الحرب: دراسة بلانشار Raoul Blanchard الكلاسيكية عن جرنيوبل ١٩١١، ودراسة Levainville عن روان ١٩١٣. وبعد ذلك تقاطرت هذه الدراسات الخاصة في كل من ألمانيا وفرنسا حيث برز في ميدان المدن اسم بلانشار الذي درس على التوالي عددا الاجتماعية دراسة توزيعية مكانية داخل المدينة. مثال ذلك: The Gold Goast & the Slum لزوربا و Harvey Zorbaugh ١٩٢٩؛ الجيتو The Ghetto للويس ويرث Louis Wirth. ثم أضاف ماكنزي Roderick D. Mckenzie كتاب The Metropolitan Community ١٩٣٣ وفيه كانت نواة هامة لدراسات الإقليمية Regionalism والتنظيم المدني للمجتمع الحديث. وبعد هذا تشعب البحث في علم اجتماع المدن الذي ظهر أول كتاب أصولي فيه textbook في ١٩٢٩ أي في تاريخ مبكر نسبيا. ثم تعددت مثل هذه الكتب، وانتشرت الطريقة والأبحاث الإيكولوجية انتشارا هائلا لا يمكن تتبعه(١).

من هذا العرض نرى أنه إذا كانت جغرافية المدن قد بدأت علما ألمانيا خالصا، فإن اجتماع المدن بدأ علما أمريكيا بكل معنى الكلمة – لا أوربيا، ويعلل البعض هذا بانفجار حياة المدن في أمريكا والبعض بتوفر إمكانيات البحث في أمريكا عنها في أي مكان آخر, والبعض الآخر بطبيعة المدينة الأمريكية المركبة المخلّطة. ولا شك كما رأينا أن جغرافية المدن أسبق نشأة من اجتماع المدن، ولكن نشأة الأخير وإن تأخرت حتى العشرينات إلا أنها جاءت انفجارية فجائية، وولدت على درجة غير عادية من النضج، وعوضت قصر تاريخ حياتها بشدة نشاطها. ولكن الأهم من ذلك أنه على الرغم من أن جغرافية المدن كانت قد بدأت تدرس المدينة من الداخل إلا أن اجتماع المدن هو الذي نفذ إلى قلبها وحلل

---

(1) Bergel, Egon Ernest. Urban Sociology. Mc Graw- Hill. 1955. pp. Vii – 4 & Ericksen, pp. 8 – 11.

تركيبه بكل تفصيل وهو بلا جدال الذي أعطى لدراسته شكلها ومنهجها الأول والأخير. وعندما نتكلم عن شكلها ومنهجها فليس هناك سوى فكرة للمناطق الطبيعية والنظرية الخلقية. ولعل في هذه المتناقضة الكبرى: لأن هذا المنهج هو لا شيء سوى الإطار الإقليمي - الإطار الجغرافي الذي كان ينبغي أن يصل إليه الجغرافيون قبل الاجتماعيين! لا مفر من أن نقرر أن اجتماع المدن قد "استلب الأرض" من تحت أقدام "علم الأرض"! ومن الحق أن فكرة التعرف على مساحات بشرية متباينة داخل المدينة كانت بلا شك عنصرا ضمنيا مفروضا في معظم الدراسات الفردية الجغرافية، كما أن من الإنصاف أن لابلاش تكلم قبل ١٩١٨ عن نمو حلقي للمدن كجذوع الأشجار؛ فأثر القرون على نمو باريس هو "Like the cencentric rings of annual growth upon the severed trunk of a great tree"[١] ولكن التعبير القوي والإدراك الكامل الصريح لهذه المفاهيم والمبادئ كان من عمل اجتماع المدن. فالموقف يشبه شخصا ظل يجمع أو ينتظر ثروة شرعية تؤول إليه ولكن غريبا عابر سبيل خالي الذهن تعثر فيها فالتقطها! وليس من الصعب أن نعلل لهذا. فالجغرافيون قد بدأوا من الأرض - من الإقليم العام للمدينة فاهتموا بطبيعة الحال بالموقع والحجم والنمو والوظائف وركزوا عليها في هذا الإطار الكبير. ولكن الاجتماعيين بدأوا من الناس، من مجتمع المدينة وركزوا عليه تشريحا وتحليلا، فوجدوا أنه بطبيعته يتنضد في إطارات صغرى ولكنها مساحية: إقليمية، فأدخلهم هذا إلى الجغرافيا من الباب الخلفي - ولكن غزوا.. ولم يبتكر الجغرافيون للآن كما يلاحظ ديكنسون لفظا أنسب "للمنطقة الطبيعية" التي يسميها بلانشار تسمية غير موفقة: natural regions[٢]. ولنفس هذه الأسباب نجد أنه بقدر سبق وتفوق الاجتماع في الجغرافيا "الداخلية" للمدينة، بقدر ما تبدو معالجتهم غير مهضومة أو متمثلة

---

(1) Prinicpled of Human Leog., trans, Lond., 1926. p 477.

(2) Dickinson, Rober F., The West European City, Lond., 1951, p 11.

ثانيا.. ويكفي أن نتصفح أي كتاب حديث في اجتماع المدن لنجد الفصول الأولى منه جغرافية صرفة عنوانا ومادة كالموقع والموضع والأساس الجغرافي للمدينة أو الإطار الإقليمي للمدينة... إلخ. فمثلا يفرد كاربنتر فصولا "للموقع العام" والموضع "والإطار الطبيعي لحياة المدينة" والمدينة وإقليمها، تحتل أكثر من ١٠٠ صفحة من الكتاب أو نحو ربعه(١). بالمثل يتكلم أريكسن عن "المدينة وقاعدتها الجغرافية" "والتكنولوجيا ومواقع المدن". أما برجل فيعقد بابا كاملا بعنوان صريح هو "الجغرافيا الاجتماعية"، فصوله مواقع المدن، والنمط الإيكولوجي للمدينة، والتغيرات الديناميكية في النمط الإيكولوجي. لكننا لن نخطئ في كل هذا التعرف على معالجة الهواة غير المحترفين amateurish.. مثلا يعقب برجل بابه "الجغرافية الاجتماعية" بباب بعنوان Typology يدرس الحجم والكثافة والتباعد والأنواع الوظيفية - كأنما ليس هذا من "الجغرافيا الاجتماعية" في شيء!... ولكن من الناحية الأخرى حتى لا يكون هناك شك في فضل اجتماع المدن على الجغرافيا فيما يختص بدراسة المدينة الداخلية يكفي أن نذكر تأخر ظهور كتب جغرافية في هذا الموضوع إلى الفترة القادمة؛ وأنها حين ظهرت كانت كل مراجعها تقريبا هي أعمال الاجتماعيين وخاصة مدرسة شيكاغو في إيكولوجية المدن، والمثل الواضح هو ديكنسون في City Region and Regionalism(٢) الذي يلاحظ أن عنوانه الصغير هو A Geog. Contribution to Hum. Ecology؛ كما ينبغي أن نذكر أن كثيرا من أعمال الجغرافيين في هذا الميدان نشرت في منشورات ومجلات علم الاجتماع - مثال ذلك فوست وديكنسون في Sociological Review في إنجلترا، وهاريس وأولمان Ullman في Amer. Jour. Of Sociolgy في أمريكا؛ ومرة أخرى نجد كتاب ديكنسون السابق ليس منشورا في سلسلة جغرافية مثل Methuens's

---

(1) Carpenter. Niles, Sociology of City Life, Longmans, 1932.

(2) Lond., 1947.

مثلا وإنما في International Library of Sociology & Social Reconstruction وكذلك كتابه اللاحق عن West European City!. بل إن نفوذ شيكاغو جذب إليها مدرسة ناشئة في جغرافية المدن في جامعة شيكاغو.

٣ - مرحلة النضج. بصورة عامة يمكن اعتبار الحرب الثانية نقطة التحول إلى مرحلة النضج. وربما كان أفضل أن نقول: إن جغرافية المدن قد بلغت سن الرشد. وأهم خصائص ذلك التطور خمس.

١ - بدء استقلال المادة عن دراسات المدن في الميادين الأخرى، وتبلور وجهة نظر واضحة وفلسفة مكانية أصيلة لها. فمثلا إذا كانت دراسة تركيب المدنية الداخل قد استمد غالبا من مدرسة شيكاغو، فقد تبلورت وجهة النظر الجغرافية في هذه الدراسة في مدرسة مثل مدرسة جرينوبل école de Grenoble تحت توجيه ونفوذ بلانشار[١] كذلك كثر عدد المتخصصين في المادة بين الجغرافيين، وأصبحت تحتل باستمرار مساحة كبيرة من كل الدوريات. وإذا كانت نسبة كبيرة من البحث لا زالت تغطي دراسات المدن المفردة التفصيلية، فقد قطعت أبحاث الربط والتقنين شوطا كبيرا، وأصبح هناك وعي تام بضرورتها. فيقول ديكنسون:

"There is a plethora of urban geographical studies, and the choice of just another town is the line of least resistance for many a young graduate student. We need a clear exposition to the social sciences of what urban geography is, and the student of georgraphy requires a clear portrayal of the field, and suggestions of meaningful lines of research, especially, in the field of comparative urban geography."[٢]

---

(1) Tricart, J., Cours de Geog. Hum., Fasc., 11, Habitat Urbain, Paris, 1958, p. 4.

(2) Reviewing Taylor's Urban Geography, in Geog. Rev., April, 1950, p. 340.

فأخذت الجغرافيا تعيد النظر في كثير من الحقائق التي نقلتها خامة غير مهضومة من العلوم المرتبطة، ولو أنه لازالت هناك مادة خام غير جغرافية تماما في كثير من الدراسات المدنية الجغرافية. وبدأت تتكشف بعض متناقضات في المادة: مثلا يقرر چفرسون:

"The Primate city therefore expresses the national disposition more completely than any other city"(1)

بينما يكتب برجل:

"Because of its international character the metropolis is less representative of a country than its smaller cities"(2)

وبالمثل قارن بين هذين الرأيين. يقول تيلور:

"After all it is not the national character of a town that the geographer is primarily anxious to ascertain. In the case of the present writer it is the site and the evolution which are of most interest"(3)

هذا بينما يقرر سور Sorre(٤).

"Elle (la ville fait partied u paysage. Elle contribute à lui donner son caractère. Il ya dans le plan, dans la physionomie d'une ville éspagnole, d'une ville française, d'une ville américaine, d'une ville allemende, d'une ville musulmane,

---

(1) Jefferson, Mark, "Law of the Primate City", Geog. Rev April, 1939, p 229.

(2) P. 132.

(3) Taylor, Griffith, Urban Geography, Lond, 1949, p. 8.

(4) Sorre, Max., Les fondements de la Géog Humaine, Paris, 1952, t, III, p. 175.

quelque chose de specifique. Elles semblent exprimer les caractères du pays ou elles ont grandi".

ب – من ناحية أخرى أخذت "القوانين" أو بالأحرى المبادئ والأفكار الكلية تتزايد بصورة مشجعة. فرغم أن كريستلر توصل إلى قوانين التباعد والحجم منذ ١٩٣٥ إلا أن مناقشة الموضوع اتسعت في الفترة الحديثة خاصة في أمريكا حيث اشترك فيها أولمان وبريسي Bracey وغيرهما. وفي ١٩٣٩ وضع جفرسون قانونه المشهور عن المدينة الأولى primate city وصراع المدن من أجل الحجم؛ ولو أن من الإنصاف أن نذكر أن فوست توصل في ١٩١٨ إلى الفكرة الأساسية وألمع إليها دون أن يبلورها[١].

جـ – كذلك دخلت جغرافية المدن بابا جديدا هو إقليم المدن City Region والمجال المدني Urban Field وما ارتبط به من دراسة الإقليمية Regionalism. ولم تكن هذه الدراسات جديدة تماما على المادة، فبذورها الأولى يمكن أن نجدها في كتاب فوست الهام Provinces of England في ١٩١٩. وكان اجتماع المدن قد طرقه كذلك بتوسع، ولكن في هذه الفترة بدأ الموضوع يأخذ طابعا جغرافيا قويا ومساهمة جغرافية خطيرة. أي أن دراسة إقليم المدينة أحدث زمنيا من دراسة داخل المدينة. وفي هذا المجال أضفت جغرافية المدن إلى أنواع الإقليم في الجغرافيا إقليما جديدا أصبح على جانب كبير من الأهمية العملية: إقليم المدينة. وقد شارك في هذا اللون في إنجلترا بعد فوست ديكنسون وسميلز وجلبرت وبريسي، وأقام له الاتحاد الجغرافي البريطاني Geog. Association لجنة خاصة دائمة. واهتم شابو Chabot بهذه الدراسة في فرنسا، وظهرت مدرسة لند Lund School في السويد على

(1) Fawcett, C. B. "The position of Some Capital Cities", Geog. Teacher, 1917 – 8, p. 243.

يد إدجار كانت Kant. ولا جدال في أن الاهتمام بالمجال المدني يرتبط أصلا بأبحاث كريستالر. وعدا هذا فإن هذا الموضوع اقترب بالجغرافيا من علم آخر هو الاقتصاد في عملية تداخل تشبه ما حدث بينها وبين اجتماع المدن في الفترة التكوينية. فليس من الصدفة أن يظهر في ١٩٣٩ كتاب الاقتصادي الكبير لوش August Lösch بعنوان:

Economics of Location. A Pioneer Book in the Relations Between Economic Goods and Geography[1].

والكتاب كله بحث مركب في إقليم المدينة وفيه يتوصل الكاتب – مستقلا – إلى نظرية مثل نظرية كريستالر إلى حد بعيد. ومنهج الكتاب جغرافي أساسا، هو الإطار والنمط المكاني الذي تتخذه الحقائق الاقتصادية، كما أنه يعتمد على دراسات الجغرافيين باستمرار. وهناك يمكن القول بأن جغرافية المدن ردت دينها لاجتماع المدن وإنما إلى علم آخر هو الاقتصاد. وأخيرا فقد قاد هذا الاهتمام بإقليم المدينة والريجيونالزم إلى دخول جغرافية المدن الميدان التطبيقي رغم أن جذور هذه الدعوة تضرب في أوائل الفترة التكوينية[٢]. وكانت جغرافية المدن بذلك من أول من دخلها من فروع الجغرافيا رغم أنها من أحدثها نشأة.

د – من خصائص الفترة ظهور الكتب الأصولية textbooks في المادة. ويجب ألا نقلل من قيمة هذه الظاهرة، لأن خروج مراجع أصولية في مادة دليل على استقرارها ونضجها، ودليل على محاولة في وضع أصول وقواعد وهيكل مبوب متكامل لها، وهذا أمر شديد الأهمية في وقت انتشر فيه الاستياء والشكوى من تأخر تكوين جغرافيات بشرية أصولية ناضجة تعطي المادة قيمة علمية محترمة[٣]. صحيح إن عدد هذه الكتب قليل قد لا يتعدى حتى الآن عشرة في

---

(1) Trans., New Haven, 1954.

(2) "Geographers and Town Planning," Geog. Teacher 1917 – 8. p. 106.

(3) Kimble, G. H. T., The Inadequacy of the Regional Concept, in London Essays in

اللغات الشائعة، وصحيح إن بعضها مجرد تجميع غير نقدي أو إنشائي يعتمد على تلخيص دراسات المدن المفردة السابقة أو رصها، ولكن بعضها وضع بلا شك الأسس الحقيقية لجغرافية المدن الأصولية مثل كتاب شابو Les Villes، وسور في عمله الضخم Fondements de la Géog. Humaine، وسميلز Geog. Of Towns وديكنسن City Region & Regionalism، وبيير جو ج: La Ville; Le Fait urbain à travers le monde(1).

وسنعود إلى مناقشة هذه المؤلفات في دراستنا لتصنيف جغرافية المدن.

هـ - أخيرا أخذ التخصص التفصيلي داخل المادة يبدأ في هذه الفترة فكثير من يتخصص حاليا في "إقليم المدينة" مثل سميلز وبريسي وجرين، والبعض يتخصص في جغرافية الموانيح Port Geog. "مثل Guido Weigend، ومورجان F. W. Morgan، والبعض في الريجيونالزم مثل جلبرت وبيكر وديكنسون.. إلخ.

ثانيا – طبيعة جغرافية المدن

المدينة، كغيرها من الظاهرات التي تدرسها الجغرافيا، ليست "حقيقة" حغرافية – بمعنى أنها ليست حكرا خاصا للجغرافيا، بل هي موضوع دراسة علوم أخرى كثيرة: التاريخ والاجتماع، الإدارة والسياسة، الهندسة والعمارة.. إلخ. ولا مفر بالتالي من أن تستخدم وتتداول هذه الدراسات أحيانا، وربما كثيرا، نفس المعلومات أو الحقائق لأغراضها. فما الذي يميز بينها، ويحفظ لها استقلالها العلمي؟ ما الذي يبرر وجود جغرافية المدن كعلم بين وإزاء اجتماع المدن، وهندسة المدن، واقتصاد المدن.. إلخ؟ إن جغرافية المدن في هذا المجال هي كالجغرافيا عامة بين العلوم: فلسفة معينة – وجهة نظر، أكثر منها مجموعة

Geog., ed., Stamp & Wooldtidge, Lond., 1951, p. 174.

(1) Paris. 1952.

من الحقائق أو جسما من المعلومات. والواقع أن تعريف جغرافية المدن لا يمكن فصله عن إطار مشكلة تحديد طبيعة الجغرافية كلية.

١ - فإذا قلنا مع التوزيعيين إنها توزيع الظاهرات المدنية على سطح الأرض فإن هذا يفقد المادة مبرر وجودها ويفقدها تميزها عن اجتماع المدن وكذلك عن اقتصادها. لأن هذه العلوم الأصولية systematic sciences لكي تصل إلى القوانين والعمليات الأساسية التي تحكم ظاهراتها الاجتماعية أو الاقتصادية في المدينة من الداخل أو الخارج لابد أن تتعرف على توزيعها. والواقع أن تطور الاقتصاد الحديث مر في ثلاث مراحل كما يتبين من لوش(١)؛ فبعد أن كان الاقتصاد الكلاسيكي يسعى إلى القوانين المجردة في إطار فرضي، انتقل إلى مرحلة تتبع الأدوار والمراحل التطورية الاقتصادية أي انتقل إلى العنصر الزماني، وأخيرا أدرك القيمة القصوى للعنصر المكاني والإطار المساحي فكانت مدرسة "الباحثين في المكان Raumforscher"(٢) التي تبلورت على يد لوش وإن كانت ترقى إلى فون تينن V. Thünen ونظريته الحلقية المشهورة. وبالمثل مر علم الاجتماع في نفس المراحل: من النظريات المجردة الكلية لمدرسة كومت Positivism، إلى الفكرة التطورية الجامحة، إلى العنصر والأساس المكاني في صورة المدرسة الإيكولوجية. وكما أن اقتصاديا لا جغرافيا - فون تينن - هو الذي توصل إلى النظرية الحلقية في الاستغلال الاقتصادي land use، فقد رأينا أن اجتماعيا لا جغرافيا - بارك - هو الذي وضع نظرية المنطقة الطبيعية، وأنه اجتماعي مرة أخرى الذي وضع النظرية الحلقية لنمو المدنية - ماكنزي، وهي النظرية التي تقابل في الاجتماع نظرية تينن في الاقتصاد، أو التي هي امتداد من نوع آخر داخل المدينة لحلقات تينن

---

(1) Lösch, p. 93.

(2) Ibid., p 349.

خارج المدينة. وفي كل هذه الحالات كان الأساس هو التوزيع بصورة قاطعة فالتوزيع إذن ليس حكرا للجغرافيا، وليس هو الجغرافيا، وإن كان مادتها الخام الرئيسية الأساسية غالبا(١). وحين يستخدم اجتماعي أو اقتصادي المدن التوزيع لا يكون التوزيع هدفا أو غاية بل عارضا ووسيلة، وسيلة نحو فهم أفضل للغاية الحقيقية: قانون الظاهرة الاجتماعية أو الاقتصادية المعنية: فالعملية Process لا النمط Pattern هي الغاية(٢). ولكن الجغرافي من ناحيته وإن بدأ من التوزيع والنمط إلا أنه بالنسبة إليه وسيلة أيضا لا غاية رغم ما يبدو في ذلك من غرابة. وسيلة نحو فهم "شخصية الإقليم". ولهذا السبب فإن اجتماعي المدن حين يناقش المظاهر الاجتماعية لمنطقة المدينة فإنما ليتفهم عمليات النمو الاجتماعي فيها من تركز concentration أو عزل segregation أو غزو invasion أو تتابع succession أو اضطراب disorganization لا ليبرز الشخصية الاجتماعية لها، فهو لا يعني بالمنطقة ذاتها ولكن بالظاهرات التي فيها. ولما كان النمط التوزيعي هو النتيجة الأخيرة للعملية، فمن حقه أن يدرسه. وهو حين يدرس توزيع هذه الظاهرات يشارك في صفة الجغرافي التوزيعية، ولكن لا يصبح جغرافيا(٣)، أكثر مما يصبح الجغرافي جغرافيا بالتوزيع فقط. فالتوزيع ليس علما، ولكنه "منهج بحث" مفتوح لكل العلوم – جغرافية وغير جغرافية على السواء، لكنه ليس أحدها – ليس العلم الجغرافي على أي حال. بل أكثر من هذا، إن الجغرافي – مثاليا – يتسلم بل ينبغي أن يتلقى توزيعاته من الأخصائي الأصولي – علم اجتماع المدن أو اقتصادها urban economics هنا، وبعد

---

(1) Hartshorne, Richard, The Nature of Geography, A. A. A. G., Lancaster, 1939, p. 418 & Watson, James Wrford, The Sociological Aspects of Geog, in Taylor's Geography in the Twentieth Century, Lond., 1951, pp. 476 - 7.

(2) Watson, p. 470.

(3) Ibid, p 476.

ذلك يبدأ دوره الأصيل[١]. وذلك لأن تحديد قيمة ومعنى الظاهرة التوزيعية يتوقف على فهم "العملية" التي ترقد تحتها، والأصولي لا الجغرافي هو الذي يقوم بهذا[٢]؛ ولهذا فليس هناك في الحقيقة غرابة أو تناقض في أن الاجتماعي وصل إلى "المنطقة الطبيعية" قبل الجغرافي، إلا لأن الأخصائيين الأصوليين عامة أهملوا من الناحية التاريخية الواقعية نواحي التوزيع الخاصة بهم بحيث تعود الجغرافي أن يقوم بها تقليديا.. ولو كان التوزيع هو الجغرافيا لكان اجتماعي المدن أقدر من جغرافي المدن في هذا المضمار كما يوضح واطسون، ولما كان لها كيان مستقل، ولما زادت عن خادمة أو تابع لاجتماع واقتصاد المدن: فليست جغرافية المدن مجرد الإطار المساحي أو المكاني لإيكولوجية أو اجتماع المدن أو غيرهما. ومن ناحية أخرى لو كان التوزيع هو الجغرافيا لكانت المادة وصفية لا تعليلية، سطحية تطرب "للزخارف" patterns لا وظيفية functional هادفة. ومن ناحية ثالثة لعدمت الترابط الداخلي بين عناصرها، أي لما كانت جسما موحدا unified، إذ ما الذي يجمع حينئذ بين عناصر شتى متنافرة كالموقع والطبقات الاجتماعية والموضع والوظائف.. إلخ؟ إن هذا يعود بنا إلى فتح الباب للسؤال الذي أثاره – ولو لهدف آخر – چورج جرلاند Gerland في القرن الماضي حين تساءل: "أي نوع من العلاقة يوجد في حقيقة مثل وقوع روما على التيبر، أو براغ على المولداو؟ النهر والمدينة فكرتان متنافرتان لا يمكن للجغرافيا أبدا أن توحد منطقيا". ثم يضيف أنه لما كان نهر المولداو بالذات ليس ضروريا منطقيا لمدينة براغ بالذات، أو العكس، "فليس ثمة علاقة داخلية[٣]". والرد بطبيعة الحال هو أنه لولا المولداو بالذات لما كانت براغ ما هي بالذات – بصرف النظر عن الأسماء التي لا قيمة لها! فالتعريف

---

(1) Hartshorne, pp. 14 ff.

(2) Watson, p. 476.

(3) Hartshorne, pp. 114 – 5.

التوزيعي يمكن أن يفقد المادة وحدتها الداخلية ويفتح الباب لاتهام جغرافية المدن بأنها مجرد علم مركب merely a composite subject، وأنها ليست أكثر من أجزاء من العلوم الأخرى(١) – بضعة حقائق من هندسة المدن، وحفنة من اقتصاديات المدن، وديموغرافية المدن urban demography، واجتماع المدن، وإدارة المدن civics... إلخ. وفوق هذا فإذا كانت جغرافية المدن هي علم التوزيعات المدنية لدرست بلا أدنى تمييز كل ما في المدن من ظاهرات؛ لأن كل ظاهرة فيها تقع في مكان منها بالضرورة! فيصبح لا مانع من أن ندرس توزيع الحركات السياسية أو المدارس الفنية في المدينة! فالتعريف لا يخبرنا أي الظاهرات يمكن أن تعتبر ذات مغزى جغرافي، أي أنه فاقد للأساس الانتخابي للظاهرات، وهو حقيق بذلك بأن يخرجنا عن نطاق جغرافية المدن السليم. ولهذا كله فليست جغرافية المدن هي توزيع – أين The where – الظاهرات المدنية(٢).

٢ – فهل هي علم العلاقة بين الظاهرات المدنية وغيرها من الظاهرات والحقائق الطبيعية والبشرية؟ هل هي علم "العلاقات المدنية" Urban Ecology كما يرى البعض أن الجغرافيا هي علم الإيكولوجيا البشرية Human Ecology (٣)؟ قد يمتاز هذا التعريف عن التعريف التوزيعي بأنه يضمن مبدأ السببية والتعليل ويطرد السطحية الوصفية الجوفاء، كما يضمن وحدة العلم الداخلية بالترابط السببي والتفاعل الإيكولوجي بين عناصر الظاهرات المتنافرة فيه أي بقطع الطريق على مغالطة مثل مغالطة جرلاند السابقة. ولكنه يثير اعتراضات خطيرة. فهو – بالمنطق – يحث على البحث عن العلاقات، عن مزيد من

(1) Fairgrieve, James, Geography in School, Lond., 1949, p. 18.

(2) Hartshorne, pp. 127 – 9.

(3) Barrows, Harlau H., "Geog. As Human Ecology", A. A. A. G., March, 1923, pp. 3 ff.

العلاقات[١]، أي يدعو إلى علم "الأساس الجغرافي للمدن" Geog. Basis of Towns، "والعامل الجغرافي" في المدن "Geog. Factor"، إلى علم تلاؤم وتكثيف المدن Adaptation[٢]. وفي هذا – بصرف النظر عن أنه قد يضيق نظرة المادة إلى مجالها – لا يمكن إلا أن يحض على الحتم الجغرافي[٣]، على حتم الموضع والموقع، ويفتح بهذا قضية حسبناها طويت، وأن الحتم الجغرافي "ميت كالدؤدؤ – as dead as the dodo"[٤].. وقد يدفع هذا الاتجاه الحتمي إلى غلو في رد الفعل بين الاجتماعيين فيقللون من ناحيتهم من فاعلية هذه العناصر أكثر مما ينبغي، والنهاية هي فقدان الفهم المتزن لعنصر النسبية الأصيل في عوامل وعناصر جغرافية المدن[٥].

ولكن الاعتراض الأخطر على التعريف أنه يفقد المادة مبرر وجودها. فإذا كانت العلاقات هي الهدف فإن دراسة العلاقات هي دراسة للعمليات Processes. صحيح إن العمليات تؤدي إلى أنماط توزيعية، ولكن دراسة العمليات ستخرجنا من المنطقة إلى دراسة في الأصول genetic – في حالة المدينة إلى دراسة في القوى الاجتماعية social forces والتوازن أو الصراع بين المجموعات الاجتماعية، أي التفاعل الاجتماعي وعمليات التلاؤم فيها.. إلخ، أي إلى التفسير الاجتماعي لاستعمال المكان a social interpretation of the use of space والتركيب المكاني أو المساحي لمجتمع المدينة spatial structure of society. ويصبح الهدف في كل هذا هو المجتمع وتنظيم

---

(1) Hartshorne.

(2) Watson, pp. 477 – 80.

(3) Hartshorne.

(4) Dickinson, Review of Taylor's Urban Geog., loc. Cit., p. 340 & Spate, O. H. K., "The End of an Old Song? The Determinism – Possibilism Problem", Geog. Rev., April, 1958, pp 288 -2.

(5) Sorre, pp. 211 – 4 & West European City, p. 6.

المجتمع urban community organization لإقليم المدينة كظاهرة جغرافية. ولكل هذا تحتاج لا إلى جغرافية وإنما إلى اجتماعي، فهو بالتأكيد الأصلح لدراسة العمليات والعلاقات الاجتماعية وعلاقتها بالإطار المكاني. وإذا كان علم الاجتماع قد استنكر الحتم الجغرافي، فإنه لم ينكر الأهمية الكبيرة لعامل المكان، العامل الجغرافي، في دراسة المجتمع لأنه لا يمكن دراسة المجتمع في "فراغ" وإنما في واقع بيئي. فاتجه إلى دراسة العلاقات البيئية لمجتمع المدينة في صورة الحركة الإيكولوجية؛ فإلى جانب الإيكولوجيا الاجتماعية Social Ecology العامة لعلم الاجتماع، كانت الإيكولوجيا المدنية Urban Ecology الخاصة بعلم اجتماع المدن. ولن يمكن لأحد أن ينكر أن لأي علم أصولي أن يدرس ضوابط ظاهرته – بما فيها العامل الأرضي. أي أن دراسة العلاقات جزء مشروع من عمل اجتماعيّ المدن. وهنا تصبح جغرافية المدن إذا اعتبرناها إيكولوجية المدن علما طفيليا فضوليا، ويفقد استقلاله. كل هذا مع ملاحظة أن الإيكولوجيا في الواقع – كالتوزيع – منهج بحث هام.

٣ – ما هي جغرافية المدن إذن؟ إن عمل الجغرافي أن يطالع سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها ويتعرف فيها على كل وحدة تباينية ذات شخصية متميزة عمن سواها فيحدد معالمها lineaments ويحدد محتوياتها ومضمونها ويعلل مقومات تلك الشخصية. أي هي علم الأقاليم – علم الكورولوجيا Chorology. ودور جغرافي المدن في هذا أن يتقصى التباين الأرضي كما يأتي ويتحدد من ناحية المدن، أي مساهمة الحقيقة المدنية في إعطاء التباين الأرضي وتمييز الأقاليم. فهو يسعى وراء الشخصيات الإقليمية المدنية. وقد تكون المساحة التي ندرسها هي رقعة المدينة وحدها فنتعرف على الشخصيات المحلية داخلها؛ وقد تكون منطقة ضخمة تتعدد فيها المدن فنتعرف على أقاليم الشخصية أو الشخصيات المدنية داخلها كما

تستشف من أنماط وأنواع الشخصيات المحلية داخل كل مدينة فيها من ناحية ومن وضعها الخاص في أجزاء المنطقة المختلفة من ناحية أخرى، وهذا قد يأتي من جانب طبيعة علاقة المدينة بريفها المحيط أو من صورة وكثافة انتشار وتوزيع وتوقيع هذه المدن في الإقليم. فالشخصية الإقليمية كما تساهم في تحديدها وتشكيلها المدينة هي هدف جغرافيِّ المدن. فالمدينة بنوع تباينها وتمايزه الداخلي وبنوع تباينها وتمايزها في وضعيتها وأهميتها وعلاقاتها في الإقليم الذي توجد فيه، قد تكون مفتاحا لشخصية الإقليم، أو على الأقل هي عنوان جزئي عليها(١). فالتركيب الداخلي والتباين المكاني داخل المدينة الإسلامية يختلف عنه في المدينة الأمريكية أو مدينة غرب أوربا(٢)، وهو في مدينة العصور الوسطى يختلف عنه في المدينة المعاصرة. وهذا التباين المكاني المدني يمكن أن يتخذ في كل حالة أساسا criterion لاستقرا أقاليم جغرافية متمايزة. ومجموع المدن – مجتمعها consociation – في منطقة ما، كما يتألف من صورة أحجامه وأبعاده وعلاقاته.. إلخ يمثل أساسا متغايرا variable من منطقة لأخرى، أي عنصرا من عناصر الشخصية الإقليمية بحيث يمكن أن يتخذ مقياسا جزئيا لتقصي أقاليم جغرافية متمايزة. مثلا في تقديمه لمقال فيدال المشهور عن "الشخصية الجغرافية لفرنسا"، يضغط فلير على الفارق في صورة "مجتمع" المدن consociation بين فرنسا وإنجلترا كعنصر مفارق مميز للشخصية الإقليمية لكل منهما – الأولى بمركزية باريس الطاغية وندرة الأحجام الكبيرة وسيادة الأحجام المتواضعة، والثانية بتعدد المدن الضخمة رغم ضخامة لندن – هذا إلى جانب الفارق العام في درجة التمدين، ويتتبع هذا التفارق إلى التطور

(1) Aurousseau, Marcel, "The Geog. Study of Population Groups" Geog. Rev., April, 1923, p. 271.

(2) Sorre, p. 175.

الصناعي فالأساس الجغرافي والتاريخي للزراعة[1]... إلخ. ويمكننا أن نمثل بالفارق المماثل بين هولندة التجارية ذات العدد الأكبر من الأحجام الضخمة وبين بلجيكا الصناعية ذات العدد الأكبر من الأحجام الصغرى والمتوسطة، كانعكاس وصورة لفروق في الشخصية الإقليمية. فالتباين الإقليمي المدني يساهم في التباين الإقليمي العام وقد يعبر عن شخصية الإقليم ويترجم لها خيرا من عناصر أخرى. هو طابع cachet مادي ملموس لشخصية الإقليم وروح المكان Genius loci. وقد يكون التباين الإقليمي المدني ألصق بتحديد الأقاليم البشرية والحضارية cultural landscape، ولكنه كذلك مرآة وكشاف re- agent للنواحي الطبيعية أحيانا. قد تكون الأقاليم صماء والطبيعية خرساء أحيانا، ولكن تنطق خلال الإنسان وأعمال الإنسان. فجغرافية المدن باختصار هي التباين الأرضي المدني. هي "كورولوجية المدن urban chorology". هي رسم أقاليم المدن المتمايزة، أي التعرف على الشخصيات الإقليمية المدنية Personality، ولما كانت المدينة ظاهرة اصطناعية من صنع الحضارة، فأقاليم المدن هي في النهاية أقاليم حضارية أو أقاليم الحضارة المدنية Culture areas الأنثروبولوجي أو Cultural regions الجغرافي.

هل هذا التعريف يضمن للمادة استقلالها الخارجي ووحدتها الداخلية؟ وإلى أي حد يختلف عن التعريفين التوزيعي والإيكولوجي؟ وهل هو يلغي الحاجة إلى دراسة التوزيع؟ إن قلب التعريف الكورولوجي هو المنطقة المدنية ذات الشخصية المدنية المتفردة، وهذه كما تتركب من عناصر مميزة distinctive ذات مغزى ودلالة من وجهة نظر تفرد الشخصية والتباين. ولا مفر من أن تنحصر هذه العناصر إما في النمط pattern أي التوزيع، أو في العملية

(1) La Personalité géographgique de la France, with a preface by H, J. Fleure, Manch, * Lond., 1946, p. XIV.

process أي العلاقة الإيكولوجية. ولهذا تعتمد كورولوجية المدن على توزيع الظاهرات المدنية، وعلى إيكولوجية المدن في تفسير وتقييم هذه الظاهرات. فالتوزيع والعلاقة لُحْمَة الإقليم وسُدَاه warp & woof، ولكن اللحمة والسُّدَى ليست أكثر من مادة خام، ستشكل في صورة "وروح" جديدة – روح الإقليم المدني، الشخصية الإقليمية. فلا ندرس التوزيع في ذاته أو لذاته. وكذلك العلاقات. فكورولوجية المدن ليست توزيع الحقيقة المدنية ولا هي إيكولوجية المدن كما أنها ليست مجموعهما معا. فلسنا نركز على الظاهرة التوزيعية التي تملأ الإقليم أو العلاقة الإيكولوجية التي تسوده، ولكن نركز دائما على الإقليم، على شخصية الإقليم كما قد تتحدد بتلك الظاهرة أو العلاقة. ولهذا السبب فليس التوزيع أكثر من وسيلة ومادة خام ننتخب منها ما له مغزى ودلالة في تحديد هذه الشخصية، أي ما وصف بأنه "فعال جغرافيا geographically efficacious"[١]. وهذا يربط ربطا سببيا كفيلا بأن يوحد بين الظاهرات المتنافرة التي تمثلها هذه التوزيعات بحيث يضمن وحدة العلم الداخلية. وأما العلاقة الإيكولوجية – العملية – فليست هدفا وإنما وسيلة إلى تحديد الفعلية الجغرافية للتوزيع المعطى، فهي أساسا في انتخاب الظاهرة الجغرافية وتفسيرها، ولكنها ليست الحقيقة الجغرافية. وبينما قد تهتم إيكولوجية المدن بالعمليات في ذاتها كعلاقة الإنسان والإنسان أي بين المجموعات الاجتماعية، تهتم جغرافية المدن – في حدود اهتمامها الثانوي بالعمليات – بالعلاقة بين البيئة والإنسان[٢]. ومن الملاحظات التي لها مغزاها أن الظاهرة الجغرافية التي نعرفها منذ جفرسون "بالمدينة الأولى Primate City"، يشير إليها اجتماع المدن في صيغة "عمليات": فيسميها السيادة والتركيز.. إلخ. يقول أريكسن[٣]:

(1) West European City, p. 1.

(2) Le Lannou, Maurice, La Géog Humaine Paris. 1949. pp. 27 – 31.

(3) pp. 134 – 5.

"Theis is what mark Jefferson called "the law of the primate city" and to which contemporary ecologists have assigned the concept "dominance" with its subforms: concentration and centralization".

وبالمثل، بينما تنظر الجغرافيا إلى المدينة على أنها "شكل من السكنى" ينظر إليها الاجتماع على أنها "طريقة حياة". ويعبر برجل عن وجهة نظر واهتمام الاجتماعي كما تختلف عن الجغرافيا(١):

.. Focused on man rather than on his visible artifacts, on social actions and social relationships rather than on spatial patterns, on nonmaterial culture rather than on physical objects, on groups rather than on areas, and on social techniques rather than on technology in a narrow sense."

ولهذا ينبغي ألا نستعير من إيكولوجية المدن بلا تمييز انتخابي وإعادة تشكيل تخدم وجهة نظر الحقيقة الجغرافية – الشخصية الإقليمية. وهذا يضمن للمادة استقلالها الخارجي وكيانها المستقل. فإيكولوجية المدن بالنسبة لجغرافي المدن هي كالمتيورولوجيا بالنسبة للجغرافية المناخية. ولكن للأسف قد حدث في الجغرافيا نقل حرفي مباشر لكثير من نتائج إيكولوجية المدن سبب تميعا في مادتها واضطرابا في منهجها وهدفها، وذلك لعدم وضوح المرمى التعريفي للمادة. وكما يقول دبنام:

"Students of cities are liable to be sociologists rather than geographers".[2].

---

(1) p ix.

(2) Debenham, Frank, The Use of Geog., Lond., 1950, p. 146.

هذا هو التعريف الكورولوجي لجغرافية المدن. ولكن هناك اختلافات مذهبية منهجية داخله منها ما يختص بمفهوم الإقليم ومنها ما يختص بمضمونه أي بأساس انتخاب الظاهرات. فهناك مدرستان: الأساسية مدرسة "الإقليم" بالمعنى المعروف السابق وهي تدرس كل ظاهرة في المدينة مادية وغير مادية لها دلالة تباينية وتمييزية في المكان. ومع ذلك يرى البعض أن التباين الأرضي قفص حديدي – "Procrustean bed" مؤلم لضيقه(١). أما المدرسة الثانية فهي مدرسة "اللاندسكيب" – "اللاندسكيب البحت landscape Purists" كما يشير إليهم ديكنسون، والتي تفهم الجغرافيا على أنها علم الأشياء لا الإنسان، والإقليم على أنه الظاهرة المرئية الملموسة "tangible et visible"(٢) بالحواس أي المادية فقط. فالمدينة – كما عند بسارجه Passarge – لاندسكيب مدني townscape – Stadtlandschaft. وهي من "أعمال الإنسان Works of man" أو من "الثوابت الحضارية Cultural immolilia" كما يعبر ليلي Leighley(٣). فهي تدرس كما ترى وتلمس – كما "تلاحظ": عناصرها ومظاهرها المادية فقط. وهذا الاتجاه التحديدي الصارم جاء تحت تأثير النزعة المادية في الجيومورفولوجيا ويستهدف أصلا عدم انسياح الجغرافيا وتحقيق الملاحظة الموضوعية. ويمكن أن يلخص اقتراح جرانو Granö الموقف حين يقول: دراسة النواحي المادية للجغرافيان واللامادية للاجتماع. وهي قسمة سليمانية ضيزى تشبه اقتراحا قديما لأصحاب التعريف الجيوفيزيقي بتقسيم سطح الأرض للجغرافي وباطنها للجيولوجي، وتؤدي إلى نتائج خطيرة رفضها معظم

(1) Spirit & Purpose, pp. 143 – 4.

(2) Brunhes, Jean. "The Specific Characteristics & Complex Character of the Subject – Matter of Hum. Geog." Scot. Geog. Mag., June, 1913. pp. 304 ff.

(3) Leighley. John B., "Some Comments on Contemporary Geographies method," A. A. A. G. Sept., 1937, p 134.

الجغرافيين. فهي أولا تتصرف إلى الشكل form والهيئة physionomy، وتهمل الوظيفة function، ووظائف الأعضاء physiology، وبذلك تصبح سطحية ضحلة وصفية لا سببية، لأن الوظيفة هي الأصل والسبب، والشكل الفرع والنتيجة. فهي تدرس المباني الدينية لأنها مادية موجودة في لاندسكيب المدينة، ولكنها لا تدرس الأديان لأنها لا تُرَى. صحيح إن مدرسة اللاندسكيب البحت ليست وصفية تماما، بل هي تعليلية genetic إلى حد ما، على أساس افتراض أن الشكل مظهر خارجي ملموس للوظيفة(١). ولكن كما يقول ديكنسون(٢).

"function and form are not necessarily in harmony"

وفي المدن بالذات – كما يلاحظ فايبل Leo waibel – يصبح الشكل دليلا على الوظيفة مشكوكا في كفايته(٣). حقا إن جغرافي المدن المدرب جيدا ينبغي أن يستطيع أن يلاحظ الفرق في المظهر بين مدينة تجارية عامة وأخرى صناعية أساسا، ولكن يكون من الصعب جدا أن نقيس الفرق بالدرجة، حيث إن معظم المدن تجمع بين الوظيفتين. ثم إن كثيرا من المباني التي بنيت لأغراض – وظائف – معينة قد تغير وظيفتها دون شكلها الخارجي: كأن يتحول مخزن إلى مصنع أو العكس. وفي نيوإنجلند حول المضيفون حظائر سابقة barns إلى منازل دون تغيير ملموس في مظهرها الخارجي، بل والداخلي. ويعترف هارتسهورن أنه أنفق مرة ساعات طوالا يجوب شوارع ليون باحثا عن مصانع الحرير ليكتشف في النهاية أنه يصنع في مبان كالربع القديم tenement لا تختلف عن البيوت في شيء، "فهل كان له على هذا الأساس أن يقضي على

---

(1) Hartshorne, pp. 195 ff.

(2) "Landscape and Society" Scot, Geog. Mag., jan., 1939, p. 6.

(3) Hartshorne, p. 224.

الصناعة بأنها غير مهمة في جغرافية ليون؟" ولحسن الحظ أن اللاندسكيبيين يقولون ما لا يفعلون. فتحت تأثير مخططي المدن فيما يبدو، لا يحللون التركيب المكاني في المدينة في صيغة أشكال ولكن في صيغة وظائف[١]. فإذا كانت أشكال الحضارة مجرد تعبير عن الحضارة والأفكار الحضارية، فنحن بالتأكيد إنما نريد جغرافية الحضارة أولا أما أشكالها فتأتي بعد ذلك. وقد أصبحت كلمة وظيفة. التي لم تستعمل قبل مونييه في ١٩١٤ إلا صدفة وغرارًا، أصبحت من أشيع وأهم الكلمات في جغرافية المدن الآن[٢]. على أن من الإنصاف أن دراسة الأشكال والأنماط في المدن خاصة - الخطة مثلا - قد تثرى من فهمنا لتطورها ونموها، ولو أنه قد يعترض مع برستون جيمس على أن هذا إنما يرجع ببساطة إلى أنه لا يمكن أن توجد مدينة بلا خطة![٣] ولكن الإغراق في التركيز على الأنماط عملية تستهوي محبي الزخارف والشكليات ولكنها قد تكون خاوية جافة[٤]، والمطلوب أنماط فعالة، أنماط وظيفية functioning patterns. يضاف إلى هذا أن التركيز على الشكل المرئي قَمِين بأن يحول جغرافي المدن إلى مؤرخ للفن والعمارة art historain، ويحولها هي إلى نوع من "طبوغرافية الفن Topography of Art" كما يري ليلي Leighley فيما يبدو. فنبدأ نرسم خريطة تفصيلية توضح طراز البناء في كل نقطة: هذا رومانسك، وهذا قوطي قديم أو حديث، وهذا رينيسانس أو باروك.. إلخ. وقد لا يكون لهذه العملية الشاقة الباهظة في النهاية مغزى سوى عنصر النمو التاريخي فيها والذي يمكن أن يحدد مباشرة بدون الطراز. وعلى أي حال فهي وظيفة ليس للجغرافي قِبَل بها، وإن حاولها فينبغي بقدر. وهناك خرائط كثيرة من هذا النوع أنشأها

(1) Id., pp. 224- 5.

(2) Chabot, p. 19.

(3) Hartshorne, id.

(4) Op cit.p.134.

جغرافيون ألمان خاصة. ولكن بصراحة من الصعب أن تجد فيها دلالة جغرافية ذات بالٍ. ولا تنتهي النزعة "الفنية" التي تنطوي عليها اللاندسكيبية عند هذا الحد: بل إن التمادي في الطرز والأشكال والأنماط قد ينزلق إلى "جماليات الإقليم Aesthetics of landscape"، إلى الوقع التأثيري impressionism للاندسكيب المدينة على نفس المشاهد – وربما على أذنه وأنفه كذلك! – كما يفعل جرانو... مثلا بسارجة في دراسة لمدريد – دراسة في اللاندسكيب البحت Reine Landschaft، فلنذكر! – لا ينسى أن يضمنها مشط السينوريتا المتخذ من درقة السلحفاة وإمالة غطاء الرأس mantilla بزاوية جذابة[١]! ويذكر سميلز – الذي لا تعرف عنه منشورات فلسفية لاندسكيبية – أن شخصية المدن الحضارية.

"is not only apparent to the eye in the visible scene, but also to nose and ear through distinctive smells and sounds[2].

ورغم أن هتنر Hettner يقبل "الجغرافيا الجمالية aesthetic geog" الموضوعية[٣]. إلا أن الهامش بينها وبين "الجغرافيا التأثيرية" الشخصية ضيق زلق. وكثير من الرحالة والأدباء وغيرهم من "هواة المدن" يؤدي هذه الوظيفة لحسابه الخاص. وأخيرا، وأهم من ذلك، أن التركيز على الأنماط والشكل يستغرق الباحث عن العنصر الهندسي البحت في الموضوع – العلاقات المكانية – الموقع. فقد لوحظ على دراسات أصحاب اللاندسكيب البحت مثل بسارجه وكارول ساور C. O. Sauer وجرانو روعة وغنى في دراسة تفاصيل الأنماط مع ضعف شديد في دراسة الوضعية العامة والمواقع النسبية لها، وقد تضغط

---

(1) Hartshorne, p. 206.

(2) Geog. Of Towns, p. 69.

(3) Hartshorne, p. 219.

على الموضع بشدة وتهمل الموقع إهمالا – مع أن الجغرافيين ربما لم يتفقوا على شيء اتفاقهم مع بيرجر Bürger على أن الموقع هو أكثر عناصر الجغرافيا "جغرافية"[١]. وإذا أمكن للبعض أن يقلل من قيمة الموقع في الجغرافيا الطبيعية فهو أكثر من حيوي في جغرافية المدن بالذات. لكل هذا ليس من السهل أن نقصر التباين الأرضي على العناصر المادية المرئية في اللاندسكيب. وإذا أمكن للبعض أن يفعل هذا في بعض فروع الجغرافيا، فإنهم فشلوا – لحسن الحظ – في المدن: فكل أصحاب اللاندسكيب لا يملكون إلا التوزيع الدقيق للأقليات والقوميات والطبقات والرذيلة والديانات والتعليم.. إلخ في المدينة. والواقع أن اللاندسكيبيين كثيرا ما يبدون تناقضا بين النظرية والتطبيق، فلو كانوا منطقيين مع أنفسهم لنبذوا دراسة المدن من الجغرافيا أصلا على أساس أنها لا تحتل إلا مساحة تافهة في اللاندسكيب – والامتداد في المكان extensity اعتبار لاندسكيبي هام عندهم – ولكن ليس هناك أي مناقشة فلسفية يمكن أن تحمل أي جغرافي على تجاهل المدن! ومن الخير أن نقبل كل أساس تبايني مادي وغير مادي له مغزى معقول في تشخيص الإقليم المدني وتحديد شخصيته – أي العودة إلى الأساس الكورولوجي. على أن الأساس اللاندسكيبي قد لا يخلو من نفع في تنظيم معلوماتنا: فيمكن في الحقل أن نجعل ترتيب الدراسة تبدأ بالمرئيات المادية في اللاندسكيب وبعدها نتقصى العوامل غير المادية. ويزكي فنش Finch هذه الطريقة بالنسبة لدراسة المدن خاصة[٢].

ثالثا – وظيفة جغرافية المدن

١ – حركة الجغرافية التطبيقية. هل لجغرافية المدن وظيفة؟ – وظيفة عملية غير الناحية النظرية؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا في إطار فائدة

---

(1) Ibid., pp. 224 – 6.

(2) Hartshorne, p. 359.

الجغرافيا العامة. فأول ما ينبغي أن ندركه هو أن الجغرافيا في الفترة ما قبل الكلاسيكية Pre- Classical Period كانت -على بدائيتها – مادة نفعية Utilitarian: تصطنع "وتتعاطى" – ضمن أشياء أخر – لفائدتها في أمور الحكم والإدارة administration[١]. وفي الفترة المعاصرة أخذت الجغرافيا تخضع كما تكرر من قبل كثيرا في تاريخها، لفلسفة العلم السائدة، التي هي الآن مذهب الذرائع Pragmatism الذي يؤدي إلى الفكرة الاشتراكة التي تؤمن بالعلم في سبيل الحياة والمجتمع لا من أجل العلم فحسب. وكان التوجيه الإيكولوجي للجغرافيا مما ساعد على تحقيق ذلك، فهو على عَلاته صاحب فضل: فقد أكد العلاقة بين البيئة والإنسان، وأن الإقليم هو الإناء الذي يصب فيه المجتمع ولا مفر من أن يتشكل به بدرجة أو بأخرى. فاتجهت الجغرافيا إلى الميدان التطبيقي، أي اتجهت إلى أن تعنى بالمشاكل Problems[٢] – مشاكل توزيع وتنظيم المجتمع ومرافقه ومصالحه في الإطار الإقليمي الذي يحتله. وبدأ كثير من الجغرافيين يبحث عن تبرير علمه في "الجغرافيا التطبيقية Applied Geog "[٣]. وقد كان معنى الجغرافيا التطبيقية في جغرافية المدن هو دخول ميدان التخطيط الإقليمي وتخطيط المدن Regional & Town Planning. وإزاء هذا الاتجاه الجديد المتزايد وقفت المدرسة الجغرافية في معسكرين: النظريين والتطبيقيين – وكدنا نقول مع چان جوتمان الجيل القديم من الجغرافيين والجيل الجديد، إلا أن من الإنصاف أن كثيرا من شيوخ الجغرافيين يؤيد الاتجاه التطبيقي بقوة ويعده حركة تقدمية رشيدة. فكما يقول جوتمان "لقد نصح شيوخ المهنة في الجغرافيا الفرنسية أخيرا بتجنب الطموح التخطيطي في الدراسات

(1) Tatham, G., Geog. In the Ninteenth Century, in Taylor's Geog. In 20th C., p. 34.

(2) Hartshorne, p. 183.

(3) Spirit & Purpose, p 162.

الإقليمية. ولكن الجيل الناشئ لا يريد أن يتقبل مثل هذا النصح"(١). هكذا نجد شابو يعلن باقتضاب أن "اهتمامات مخططي المدن Urbanistes تتعدى حدود الجغرافيا"(٢). ومثله يفعل سور الذي يصف النواحي النظرية لفن إنشاء المدن (تخطيط المدن) بأنها "ليست من شأن الجغرافي"(٣). ولكن من الناحية الأخرى نجد لحسن الحظ من شيوخ الجغرافيين من يوجه إلى جغرافية المدن التطبيقية. فيقول جريفث تيلور – وقد اشترك كجغرافي في اختيار وتخطيط مدينة كنبرا العاصمة الاتحادية لاستراليا: "الجغرافيا أساسا علم وصل وربط، وفي ميدان تخطيط المدن يحشد الجغرافي قواه مع المهندس والمعمار". ثم يضيف "ولو أنه في مسائل الموضع والنقل والعلاقة مع البيئة عامة، تمت مشاكل تخطيط المدن بنفس الدرجة إلى ميدان الجغرافي"(٤). كذلك يرى ردموز – براون أن المسح الإقليمي الذي يقوم به الجغرافي ينبغي أن يكون معاونا لمخطط المدن(٥). وأكثر من هذا حكم واعتراف وتزكية لاثنين من كبار الجغرافيين عرفا بالاعتدال – وولدردج وايست: "إن الجغرافي يطور حاليا أداة، من بين عدة أدوات، تفيد في مجابهة نطاق واسع من المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد يفضل البعض، وهم في ذلك على حق، أن يضغطوا على هذا الجانب فيرون تبرير الجغرافيا فيما تسهم به لفن السياسة بأوسع معانيه، وفي محاولات الإنسان التي لا تنتهي ليضبط بيئته الأرضية ضبطا واعيا. بل في الواقع قد ظهر في السنوات الأخيرة جغرافيا تطبيقية حقيقية في ميدان تخطيط المدن والريف"(٦). كذلك يرى

(1) Gottmann, "Regional Planning in France: A Review, Geog., Rev., April, 1958, p. 257.

(2) p. 93.

(3) p. 343.

(4) Urban Geog. Pp vii. 351.

(5) Rudmose Brown. R N., Principles of Economic Geog., Lond. 1946, p. 162.

(6) Spirit & Purpose, p. 162.

دبنام أن وزارات تخطيط المدن والأقاليم مكان طبيعي للجغرافي(١). أما كتاب ديكنسون .City Region ets فكله بمثابة دعوة ضخمة على مشاركة الجغرافيا في تخطيط المدن والأقاليم ويؤكد نفس الدعوى في West European City حيث يقول:

"... the trained geographer has an equipment and a technique which can be applied to the examination of particular problems of social and physical planning[2].

كذلك يقول تريكار عن الناحية العملية في المدينة:

"Le geographe ne peut s'en désinteresser et il doit se mêler a la foule des architectes, des maçons, des uribanistes, des terrassiers, des administrateurs, des charpentiers de fer et de bois pour aider à la construction des villes nouvelles.'[3].

بل أكثر من هذا – أو أبعد – ظهرت الدعوة إلى الجغرافيا التطبيقية في المدن منذ أول الفترة التكوينية: فتعلن مجلة Geog. Teacher في سنة ١٩١٧:

"Town and Country planning might and indeed should become, Applied Geography.!" [4].

هكذا أصبحت الجغرافيا التطبيقية الهدف النهائي للمادة حتى أوصى المؤتمر الجغرافي الدولي الأخير بإقامة لجنة "للجيومورفولوجيا التطبيقية"، وحتى بدأت تتبلور نواة مما يسميه الأستاذ لنتون "بجغرافية الموارد.

---

(1) Op. cit,, p. 197.

(2) p. 1.

(3) P. 2.

(4) Vol. IX, 1917 – 8, p. 109.

"Resources Geog" تمثل بؤرة مطلوبة مباشرة في التخطيط والإدارة(١). ومن قبل في ١٩٥٢ أقام الاتحاد الدولي الجغرافي Intern. Geog. Union لجنة للتخطيط الإقليمي Commission for the Study of Regional Planning وضعت كثيرا من التقارير الهامة(٢). هكذا أصبحت جغرافية المدن التطبيقية حقيقة واقعة، وإن تكن بلا شك في أولى مراحلها. ولا ننسى أن الاتجاه التطبيقي له سنده التاريخي فهو عود على بدء لنظرة أولية في الفترة السابقة للكلاسيكية. والمشكلة أولا وأخيرا هي: هل الجغرافيا مجرد علم منور أم هي علم مفيد أي نظري فقط أم تطبيقي كذلك؟ هل هي علم وصاف أم علم كشاف poineer؟ هل تتنبأ وترسم المستقبل فتسبق الحوداث - وتخطيط المدن، أم تنتظر الحوادث حتى تقع - والمدينة حتى تبنى - فتجري وراءها كالتابع لتصفها؟ كما يفهم من بيير جورج، لا مفر للجغرافيا من أن تكتفي بالوصف بالنسبة للمدن القديمة القائمة، ويكون علم هندسة تخطيط المدن سابقا على الجغرافيا؛ أما بالنسبة لإعادة بناء مدينة قائمة أو إنشاء مدينة جديدة من لا شيء فهنا تختلط هندسة تخطيط المدن وجغرافية المدن.

"L' urbanisme est en avance sur la géographie. Il ne se confond avec elle que dans le cas de la contruction ou de la reconstruction de villes ou d'ensembles neufs ex nihilo".[3].

٢ - تطور الحركة. وإذا كان تيار جغرافية المدن التطبيقية لم يجمع قواه إلا أخيرا، فإن دلائله وإرهاصاته بدأت منذ فترة طويلة. فمن الواضح أن دراسة ديمانجيون لبيكاردي ١٩٠٥ لم تكن تقصد مجرد الوصف فقط، بل حاولت

---

(1) Linton, David L, "Geog. * The Socilal Revolution & Geog Jan, 1957, p. 21.

(2) Gottmann.

(3) La Ville, p 23.

اقتراح التحسينات وتفادي أخطاء الماضي[١]. على أن الدفعة الأولى جاءت في نهاية القرن الماضي وبداية الحاضر في صورة حركة "الإقليمية Regionalism " التي ولدت في فرنسا أولا كحركة أدبية عاطفية عند الفيلبريجبست Félivrigistes كاحتجاج على ضياع التقاليد الفولكلورية الإقليمية إزاء طغيان وتنميط باريس، ثم تحولت إلى حركة إدارية وسياسية ضد اختلال التوازن في الثورة والمواهب والنفوذ بين مركزية العاصمة وضآلة الأقاليم والعواصم الإقليمية[٢]. وقد تبنى "الريجيونالزم" كثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة أمثال لويس ممفورد وأودم Odum وكول G. D. H. Cole، ولكن النصيب الأوفر منها الآن هو للجغرافيين. ثم جاءت الدفعة الثانية – التي ترتبط مذهبيا بفلسفة وحركة الريجيونالزم – منذ الحرب الأولى مع حركة "المسح الإقليمي Regional Survey" القوية في انجلترا على يد باتريك جديس Geddes تحت تأثير تعاليم لي بلي Le Play البيئية عن العلاقة بين "المكان والعمل والسكان Place- Folk – Work". فقد أصر جديس – الذي اعتبر جغرافيا – في حركته الداوية على أن لابد من مسح جغرافي كامل لإقليم المدينة قبل أن يمكن أدنى تخطيط لها، فليس هناك تخطيط مدني civic planning بلا تخطيط إقليمي regional planning[٣]. وقد شارك في هذه الدعوة جماعة Le Play House من علماء الاجتماع مثال فيكتور برانفورد Branford[٤]. ومن المعماريين المخططين أمثال أبركرمبي الذي يعد المسح الإقليمي جزءً من

---

(1) Gottmann, p. 261.

(2) Morgan. F W, "Three Aspects of Regional Consciousness", soc. Rev., Jan., 1939, pp. 68 ff. * Mumford, Lweis, "Theory & Practice of Regionalism". Soc, Rev., April, 1928, p. 13.

(3) Auzelle, Robert, Technique de l'Urbanisme, Coll. Que Sais- je? Paris, 1953, p. 11.

(4) Branford, V., "Life- Doctrines in Conflict", Soc. Rev., jan., 1923, pp. 6 – 7.

"الجغرافيا الكبرى The Greater Geog."، وأن المسح يسبق التخطيط[١]. Urbanisme في أثناء نشأته وتكوينه أفاد من الجغرافيا وأدرك علاقته الوثيقة بها كما فعل مارسيل بويت Pöete أول أساطين تدريس التخطيط في فرنسا[٢] وقد عاصر حركة المسح الإقليمي ظهور عمل ريادي سابق لأوانه في جغرافية التخطيط هو كتاب فوست عن أقاليم انجلترا Provinces England الذي كان أول محاولة بناءة لإعادة التخطيط الإقليمي والإداري على أساس المدن العواصم الطبيعية وأقاليمها التاريخية الوظيفية – أي أول محاولة في الريجيونالزم. وفي نفس الوقت كان فلير ينادي: "دعنا ندرس الحياة إقليميا دعنا نرى المدينة كبؤرة للتعبير الروحي. دعنا نحاول أن نخطط، لا لمجرد أن نواجه مشاكل التزاحم. وإنما بطريقة ما توفر وسائل صون كل ما له قيمة حيوية في التقاليد الموروثة للمدينة"[٣]. ومن الضروري أن نلاحظ قيمة وفضل فكرة الإقليم الجغرافي الطبيعي major natural regions التي ظهرت معاصرة في التوجيه إلى حركة الريجيونالزم والتخطيط الإقليمي.

بعد هذا اشتد الاتجاه نحو جوانب جغرافية المدن التطبيقية من تخطيط مدن وتخطيط إقليمي، وتعددت أسماء الجغرافيين فيها: إيفاتيلور Eva G. R. Taylor, وجلبرت وديكنسون، وسميلز، وقد جاءت الحرب الأخيرة حاسمة في تأكيد هذا الاتجاه بعد تدمير كثير من المدن وتداعي كثير من أقاليمها. فلم تعد الدراسات المدنية التطبيقية بدعا، بل انتشرت كروتين جغرافي. ففي فرنسا، التي لاقت فيها حركة التخطيط الإقليمي وقتا عصيبا نتيجة لعنف مركزية العاصمة

---

(1) Abercrombie, p., Town & Country Planning. Home Univ. Lib., Lond., 1933, pp. 136 – 7.

(2) Bardent, Gaston, L' Urbanisme, Coll. Que Sais je? 1947, pp. 24- 7.

(3) Quoted in Fagg. C. C. & Hutchings, G. E., Intro. To Regional Surveying. Cambridge, 1930, p. 7.

وتوقف السكان ديموغرافيا، شهدت فترة ما بعد الحرب فيضا من الاهتمام والكتابة في التخطيط الإقليمي Aménagement du territoire ou d'écpace, Planification régionale فدعا فيليبونو Michel Philipponneau في مقال يقرأ من عنوانه، La Géographie: Sciénce Appliquée، إلى تطبيق الجغرافيا على التخطيط وأصر فرنسوا جاي Gay على الحاجة إلى التخطيط بالأقاليم، وبالمثل جان جوتمان، وقد أنشئت مناهج ودراسات في "الجغرافيا التطبيقية" وفي التخطيط الإقليمي في كثير من الجامعات الفرنسية إما في أقسام الجغرافيا أو مدارس العلوم السياسية(١). أما في انجلترا فقد تكاثر عدد المهتمين بجغرافية المدن التطبيقية، ولأول مرة تعلن الحكومة في الصحف عن الحاجة إلى جغرافيين للمساهمة في مشاكل استغلال الأرض Land Use، وأصبح في وزارة الحكم المحلي والإسكان Local Govt. & housing عدد كبير من الجغرافيين المحترفين يعملون جنبا لجنب مع "أساطين" التخطيط القدامى: ثالوث المهندس والمعمار والمساح. كذلك أنشئت مناهج ودراسات في تخطيط المدن في كثير من الجامعات والمعاهد مثل درم ومنشستر وليفربول ولندن، وبعضها في كليات الفنون كما في أدنبره وليدز ونوتنجهام وجلاسجو وغيرها. وقد قضت اللجنة الحكومية المشكلة في ١٩٥٠ لتحديد مؤهلات المخططين بأن المخطط ينبغي أن يبدأ بفكرة واضحة تماما عن الأهداف الاقتصادية والاجتماعية للتخطيط، وأن لمن ليس مهندسا أو معمارا أو مساحا كالجغرافي والاقتصادي والاجتماعي أن يمارس التخطيط بعد دراسة عليا له(٢). أما في ألمانيا فقد دخلت حركة الباحثين في المكان raumforscher بما

(1) Gottmann, pp. 257 – 261.

(2) Jackson, J. N., "The Place of Geog. In Town & Country Planning," Geog. Jan., 1958, pp. 40 – 2.

فيها الجغرافي ميدان التخطيط: Städtebau، والأقاليم Raumordnung، Ramplannung[1]. أما في الاتحاد السوفيتي فقد أصبحت الجغرافيا عنصرا مشتركا في التخطيط بكل نواحيه في "هيئة تخطيط الدولة Gosplan[2]".

٣ – أسباب الحركة. هكذا نرى تيار الجغرافيا التطبيقية عامة وجغرافية المدن التطبيقية خاصة، يزداد بسرعة وقوة باطراد. ولا شك أن في هذا الاتجاه رد فعل لحالة من السخط وعدم الرضا بين الجغرافيين في الفترة الأخيرة، وذلك بسبب الوضع العلمي للمادة. فقد كان واضحا أن الجغرافي على ضخامة – بل فداحة! – معلوماته لا يجد له مكانا في الحياة العملية خارج الناحية الأكاديمية، بينما ينجح المتخصصون الأصوليون بمادة أقل غالبا، ووجهة نظر أضيق على التأكيد. ومن الناحية الأخرى كان واضحا أن كل نواحي الحياة العملية تتجه بلا شك إلى أن تتشكل وتستقطب في إطار إقليمي: فالتخطيط القومي لا يلبث أن يتحلل إلى عوامله الأولية وهي التخطيط الإقليمي، وتخطيط المدن لا يلبث أن يخرج عن النطاق المحلي البحت ليستقر في إطار التخطيط الإقليمي. وقد رأينا كيف يتجه الاقتصاد والاجتماع في آخر مرحلة من تطورهما إلى الإطار الإقليمي. أي أن كل عمليات تنظيم المجتمع وتنضيده إنما تتم بالضرورة وفي النهاية في الإطار المكاني الإقليمي الذي يعد الجغرافي أخبر الناس به. ويلخص ستامب الموقف فيقول: إن كل تخطيط طبيعي physical planning لابد بالضرورة أن يبدأ من الوضع الحالي؛ فسواء كان القرار النهائي في الآخر أن نزيل الوضع أو نعدله أو ننميه أو نعيد خلقه فلابد أولا من أن نعرف ونفهم الوضع القائم. فالخطوة الأولى هي المسح، وليس أقدر لها من الجغرافي. ويجب

---

(1) Lösch, p. 349.

(2) Howe, G. Melvyn. "Geog. in the Soviet Universities," Geog. Jour, March 1958, pp 80 – 4.

ألا نلوم المسح على أنه تصميم على بقاء الوضع الراهن status quo، أو على أنه بالضرورة يعني تغييره. فلنميز بين المسح والسياسة التي ستتبع بعده. ولكن بعد المسح، هل يترك الجغرافي نتائجه لغيره يطبقها على الشئون والمشاكل العملية أم يتولاها هو؟ هل للجغرافي أن يلعب دورا في تخطيط المدن والأقاليم وهناك مخططون محترفون؟ يرد لنا على هذا خبير تخطيط محايد غير جغرافي هو اللورد سكوت Scott الذي أشرف على تقرير سكوت عن تخطيط الموارد والأقاليم في بريطانيا:

"Town Planning is the art of which geography is the science"[1].

فمن درس الوضع الراهن تماما هو الأصلح لتخطيط مستقبله. وكثير من قواعد ومبادئ المخططين المهندسين ليست إلا استباقا وضبطا لعملية طبيعية تحدث تلقائيا ويعرفها المسح الجغرافي جيدا. فمثلا ما هي المنطَقَة Zonning – أهم مبادئ المخطط؟ أليست هي المنطقة الطبيعية Natural Area "مصنوعة" لا مطبوعة؟ إن مبدأ المنطقة Zoning – وكل التخطيط – ليس أكثر من توجيه وترشيد وضبط لظاهرة تلقائية. يؤيد رأينا هذا ما يقوله برجل من أن "الاتجاه الحاضر في المنطقة يتبع عموما مزيجا من نمط برجس وهويت Hoyt"[٢] كذلك يقول وولدردج: إن اللاندسكيب الحضاري لم يخطط في ماضيه الألفي الطويل تخطيطا واعيا، ولكنه ثمرة تاريخ طويل من التجربة والخطأ، ولكن العملية لا تختلف في جوهرها عن تخطيط المخطط الحديث إلا في السرعة والوعي، وإن كلا من تخطيط الريف والمدن هو لذلك "جغرافيا تطبيقية":

---

(1) Stamp, L. Dudley, Applied Geog., in Lond. Essays in Geog, ed. Stamp & Wooldridge, pp. 11 – 2.

(2) p. 460.

"Town and rural planning are both applied geography.." [1].

لهذا كله لم يكن غريبا أن الجيل الأصغر من الجغرافيين قد نمى لنفسه فيما يبدو ذوقا للحياة غير الأكاديمية - حياة الموظف التطبيقي غالبا، لا البيروقراطي [٢].

ولكن لابد أن نتساءل بعد هذا عن السبب في أن جغرافية المدن كانت من أسرع فروع إلمامه نسبيا إلى الميدان التطبيقي رغم أنها من أحدثها تخصصا.

لا شك أن من العوامل الهامة تزايد الدور الهائل الذي تلعبه المدن وانتشارها الكاسح في "عصر المدن" - ولنذكر أن كل الجغرافيين في العالم سكان مدن!.. ثم هناك التدمير الذي لحق كثيرا من المدن في الحرب الأخيرة والحاجة إلى إعادة مسحها وتخطيطها. ولكن جزءً من السبب على الأقل يرجع إلى أن الجغرافي عامة يتعامل مع أقاليم ضخمة كبرى Macro – regions أكبر من نطاق التخطيط وأبعاد الضبط البشري، أقاليم لا يمكن أن يراها ككل - دعك من أن يخبرها شخصيا. ولنتذكر تشبيه برستون جيمس البليغ: "كجرثومة تسعى على صفحة صورة في جريدة.."! [٣]. أما في جغرافية المدن فربما كانت وحدة الإقليم أصغر وأكثر تناسبا مع المقياس البشري، يمكن تداولها والتعرف عليها في حدود التصور البشري.

٥ - النظرة إلى الجغرافيا التطبيقية. ولكن كيف قوبل الجغرافي في ميدان التخطيط؟ لازال المخططون "الكلاسيكيون" ينظرون أحيانا إلى زملائهم الجدد من الاجتماعيين كالجغرافيين بنوع على الأقل من الشك، وقد يشيرون إليهم

(1) Wooldridge, S. W., "Town and Rural Planning," Geog., June, 1938, pp. qoff.

(2) Rose, John K., Geog. In Practice in the Federal Government, Washington, in Taylor's Geog. In 20 th C., p. 572.

(3) James, Preston, "Terminology of Regional Description," A. A. A. G., vol. 24, 1934, p. 84.

بكلمات مثل back- room boy أو research wallah أو – geohrapher – planner – ليس بالضرورة كتحقير ولكنها على العموم لا تدل على التقدير وهم لا زالوا يعتبرون أنفسهم "المخططين الحقيقيين"، وما زالت شكوكهم في جدوى الجغرافيا(١). وكما يقول أريكسن:

"In fact olly gradually is recongnition being given to such "laymen" as political scientists, sociologists, geographers and public relations men in local planning administration"(2).

ويلاحظ حتى بعد دخول الجغرافي في مكاتب التخطيط أنه في الغالب يعمل تحت اسم آخر غير صفة الجغرافي(٣). ولا شك أن هذه النظرة من ناحية ثالوث التخطيط القديم ترجع إلى أن الجغرافيين يغزون ميدانا لا زال يعد بالتقليد التاريخي امتيازا خاصا لهم، وهي نظرة قد تبدو طبيعية من حيث إن تشريعات التخطيط في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي كانت قاصرة تماما على تحسين الظروف الصحية والسكنية داخل المدن، وكذلك لأن المركز والمغزى الحالي للتخطيط في الحياة القومية يرجع بلا شك إلى جهود وعمل هذه الفنون الثلاثة الأولية. ولكن الوضع قد تغير تماما، وأصبحت هذه النظرة لا تتفق مع الواقع(٤). فلم يعد التخطيط عملية ترقيعية ضيقة الأفق تتم بعد المأساة، ولم يعد التخطيط طبيعيا بحتا فحسب physical planning، بل أصبح المسح الإقليمي الكامل بجانبيه من تخطيط طبيعي وبشري social planning فرض قانونيا، كما في انجلترا مثلا، على المخطط، واتسع أفق التخطيط حتى أصبح الإطار

---

(1) Jackson, p. 40.

(2) p. 438.

(3) Rose, pp. 569, 573.

(4) Jackson, id,

الإقليمي على الأقل هو الوحدة الصغرى التي يمكن أن ينظر إليه منها. ولم تعد المدينة ينظر إليها أو تعالج كاملة مستقلة في ذاتها، بل إن كل المدن في الإقليم تؤثر على كيان بعضها البعض من ناحية وتتفاعل مع الإقليم نفسه من ناحية أخرى كمجتمع الأشجار في الغابة urban consociation. فلم يعد من الممكن عزل مدينة أو جزء من مدينة لأغراض التخطيط كما لو تحت ناقوس زجاجي مفرغ – كما كان يفعل المهندس الإخصائي في الماضي[١]. وأي تجاهل لهذا يؤدي إلى تخطيط خطأ ضار بالمدينة والريف على السواء. ويكفي للدلالة على هذا أن الخطط التي وضعها المخططون المهندسون لنمو المدن في نصف مناطق بريطانيا حتى ١٩٣٧ فقط كانت قد عينت من الأرض ما يكفي لزيادة نحو ٣٠٠ مليون نسمة (!!) في وقت كان السكان فيه قد بلغوا التوقف تقريبا[٢]... والخلاصة أنه لا يمكن أن نخطط لمدينة خارج إطار الإقليم وللإقليم خارج إطار الدولة. ولهذا دخل التخطيط لأول مرة في دور التخطيط الشامل لا الجزئي[٣]. وإذا كان نشاط المهندس قد امتد أخيرا إلى المسح الإقليمي الذي يسبق التخطيط الطبيعي فما هذا إلا لضرورة ظرفية، ولكن أحدا لم يدع أنها من صلاحياته الموضوعية[٤]. وإذا كان على المهندس أن يدرس عددا من العلوم الاجتماعية وجغرافية المدن قبل أن يصبح مخطط مدن، فهذا اعتراف بأن الجانب الفني الهندسي البحت لا يكفي وأنه من الجانب البشري الإقليمي العام قد أصبحا صنوان متكاملين لا تخطيط بواحد منهما دون الآخر.

بل قد يمكن القول بأن الفرد المخطط الكامل غير موجود أو ممكن، وأن

---

(1) Willatts, E, C, Some Principles of Land – Use Planning, in Lond. Essays in Geog., pp. 296 – 7.

(2) Ibid., p. 290.

(3) Ibid. p. 302.

(4) Jackson.

المخطط المثالي الكامل مجموعة لا فرد – وقد اقترب ستامب من هذا الانتهاء كثيرا[١]، وكذلك دبنام[٢]. والسبب في هذا الوضع أن الحياة الواقعية العملية لا "تحدث" بحسب التخصص. ومن ثم فليس التخطيط حكرا للمهندس أو المعمار أو المساح. لكن من الناحية الأخرى لاشك أنه ليس ثمة جغرافي يدعي أنه يمكن أن يقدم كل الحل لمشكلة التخطيط الطبيعي[٣]، أو يود أن ينازع المهندس – المخطط أو يشاركه مهارته الفنية في تصميم خطة منزل أو وحدة مصنع ولكن على الجغرافي "أن يناضل من أجل الاعتراف به مع أي مساح أو مهندس حصل على صف التخطيط ويظن نفسه قادرا إما على القيام بمسح عينات أو على تفسير المعلومات الإحصائية المعقدة عن السكان أو الصناعة... فالمسح ليس، كما يريدنا كثير من المخططين أن نعتقد، مجرد حدس أو إلهام أو فهم عام أو شغل يلقى به إلى (صغار المكتب)". بل هو مبني على أساس الخبرة المتراكمة والمعرفة[٤]. وكل من يطلع على عناصر المسح الإقليمي كما يضعها ويحددها المخطط المهندس[٥]. لابد يدرك على التو أنها العمل اليومي – الخبز اليومي! – للجغرافي، ولابد أن يتفق مع جاكسون على أن المسح التفصيلي للماضي والحاضر والتنبؤ بالمستقبل هو مجال الجغرافي أكثر من أي شيء آخر، وأنه يمكن للجغرافي – بل عليه – أن يسهم في هذا الجانب من التخطيط[٦]. وقد بدأ بعض المهندسين المخططين يعترف بهذا ولو في تحفظ. فيقول روبير أوزل الأستاذ بمعهد التخطيط بجامعة باريس: إن التخطيط السليم يجب أن يعتمد على

(1) Applied Geog. Lond, Essays, p 17.

(2) op. cit., 197.

(3) Stamp, idem., p. 16.

(4) Jackson, p 43.

(5) Abercrombie, pp. 133 – 5 & Fagg & Hutchings, pp 117 – 123.

(6) p. 39

معرفة دقيقة جدا بالإنسان وحاجاته المتعددة وببيئته، وهي معرفة يساهم فيها عدد كبير من العلوم: كالاجتماع والتاريخ والجغرافيا والسكان.. إلخ. والمخطط مجمع لكل هذه الأبحاث وهو "قائد الأوركسترا" فيها الذي ينسق بينها(١).

ونحن في مصر في حاجة ماسة إلى إدراك حقيقة تخطيط المدن والأقاليم وأنه لا يمكن أن يتم على صواب إلا بالتعاون الكامل بين المهندس من ناحية والجغرافي والاجتماعي والاقتصادي من ناحية في صورة هيئة مشتركة، بل ينبغي أن يكون لكل مدينة مكتب تخطيطها المشترك شاملا "جغرافي المدينة"، الذي يكون من واجبه عمل مسح جغرافي كامل للمدينة وإقليمها كنقطة البدء في أي تخطيط رشيد. ولحسن الحظ أن هناك من أساتذة التخطيط الهندسي من يتفق معنا في هذا بل وسبق أن دعي إليه: "أعتقد أن مصر في أشد الحاجة إلى خبراء وفنيين ملمين بحالتها الجغرافية والطبيعية والجيولوجية وكذلك حالتها الاجتماعية والصحية والثقافية والاقتصادية والصناعية والزراعية.. ومصر كذلك في حاجة لمن يقوم بدراسة وتنفيذ مشروعاتها العمرانية الضخمة، أعني أنها في حاجة إلى جيل من المخططين Planners نشأوا في مصر وأحسوا باحتياجاتها. وعلم تخطيط الأقاليم والمدن والقرى علم جامع للموضوعات السابقة الذكر". والواقع "يحتم علينا أن ننشئ لهذا العلم معهدا.. على أن يلتحق بهذا المعهد خريجو أقسام العمارة أو الاقتصاد أو الجغرافيا أو الاجتماع من الجامعات ويقضي الطالب بهذا المعهد عامين دراسيين يحصل بعدهما على الماجستير في التخطيط.."(٢).

٥ – مغزى الحركة التطبيقية. هذا هو الموقف التطبيقي لجغرافية المدن. ولا شك أنه يمثل نسبة قليلة حتى الآن من الجغرافيين. "وليس يكفي الجغرافيين أن يظلوا بعيدين وينتقدون حماقات المخططين من منبر أكاديمي أو من سلم عربة

(1) Auzelle, pp. 7, 10, 16.

(٢) عبد الباقي إبراهيم، مدرس العمارة وتخطيط المدن بهندسة عين شمس. الأهرام. يونيو ١٩٥٦.

رحلات أثناء أسبوع ملتهب في الحقل[1]". فالمجال التطبيقي يحتاج إلى تدريب حقيقي وإعادة تقييم للدراسة النظرية. فقد دلت تجربة الجغرافيين الأمريكيين في الإدارة والحكم والتخطيط على أنه وإن كان التخصص الإقليمي في الدراسة مطلوبا في حالات كثيرة ، إلا أن التخصص الأصولي يبدو أهم وأجدى حين التطبيق. إذ أن رجال الإدارة كثيرا ما وجدوا الجغرافي "واسع المعرفة لدرجة أنه ليس مرجعا في أي شيء"[2]. ولا شك أن التخصص الإقليمي مطلوب في أعمال تطبيقية كثيرة، ولكن في هذه الحال لابد من التخصص التام فيها على مستوى الجغرافيا الميكرسكوبية microgeography. على أن حظ الجغرافي الأصولي يبدو على العموم أسعد نوعا ما. ولكن هذا يعني بدوره التخصص الحقيقي في خط أصولي إلى جانب السيطرة على كثير من الموضوعات المشتركة بينه وبين العلم الأصولي المقابل. وعلى أي الحالين لابد من استكمال التخصص الجغرافي ببعض الدراسات الأصولية غير الجغرافية التي ترتبط به. وفي الحالين تبدو الجغرافيا العملية، وجغرافية الغيط .field geog – وفي قلبها المساحة الأولية والخرائط – ضرورة شرطية للجغرافيا التطبيقية[3]. وقد يلاحظ تعارض بين الفلسفة الأساسية للجغرافيا النظرية التي تصر على التكامل أكثر من التخصص، وبين الضرورة العملية للتخصص في الجغرافيا التطبيقية، ولكن قد يكون هذا التناقض ظاهريا أكثر مما نظن.

رابعا – تصنيف جغرافية المدن

١ – أين تقع جغرافية المدن في العائلة الجغرافية؟ صنف باروز الجغرافيا البشرية إلى اقتصادية، سياسية، اجتماعية، وتاريخية[4]. ولكن هناك إجماعا على

---

(1) Jackson, p. 39,

(2) Rose, pp, p. 584 – 6.

(3) Id., pp. 575 – 586.

(4) Barrows, loc. Cit, p. 7.

أن الأخيرة إنما تقابل بالجغرافيا عامة(١). وصنف روكسبي البشري إلى جنسية، اجتماعية، اقتصادية، وسياسية(٢). ولكن هناك اتفاقا على أن الأولى - إن كان لابد(٣). فهي جزء من الجغرافيا الحيوية. وقد حدث في الفترة الحديثة تحرك في الاهتمام نوعا داخل البشرية من الاقتصادية إلى الاجتماعية(٤). وقد قبلت الأغلبية الجغرافيا الاجتماعية وإن لم يتحدد نطاقها وظل موضوع مناقشات، ولكنها كانت تشمل في الجغرافيا بصورة عامة ما يقابل علم الاجتماع، أي دراسة السكان والمسكن من ريفي ومدني Rural & Urban Habitat، والنظم الاجتماعية أو البيئات(٥). ولكن في السنوات الأخيرة ظهرت اتجاهات جديدة فهارتسهورن(٦). يشير إليها على أنها "what might termed sociological geography" وأن إضافتها الممكنة للجغرافيا لابد أن تكون محدودة إلى حد بعيد. وأصبح البعض لا يرى مع وجود الاقتصادية والسياسية أي مجال وبالتالي مبرر لجغرافيا اجتماعية(٧). ومن ناحية أخرى أوجد الاتجاه اللاندسكيبي المادي جغرافية جديدة هي "الجغرافية الحضارية، Cultural Geog" تختص "بأعمال الإنسان" الحضارية في اللاندسكيب، "بالغطاء الحضاري Cluturosphere"، أي خاصة المسكن من ريفي ومدني(٨). ثم جاء فتزجرالد فأعلن أنه يرى إحلال كلمة الجغرافيا البشرية بالجغرافيا الاجتماعية على أساس لغوي ومنهجي معا(٩). ولم

---

(1) Hartshorne, p 397.

(2) Roxby, P. M., "Scope & Aims of Hum. Geog. "Scot. Geog, Mag., 46, 1930. pp. 2276 ff.

(3) Houston, J. M, A Social Geog. Of Europe, Lond., 1953, p. 26, 38.

(4) Huntington, E., A. A. A. G., col. XXII, 1932.

(5) Houston, p. 27.

(6) p. 397, 405.

(7) Debenham, p. 176.

(8) Sauor, Carl O, Morphology of landscape, Berkeley, 1938, pp. 45 – 6.

(9) Fitzgerald, W., Geog & Its Components, Geog. Jour, May – June 1946, pp. 272 – 3.

يكن هذا جديدا تماما، فإن فاللو كان أول من استعمل كلمة جغرافيا اجتماعية في عام ١٩٠٨ كمرادف للجغرافيا البشرية[١]. وذلك بعد أن بدأها ديمولان لأول مرة بمعناها الضيق الصحيح في أواخر القرن الماضي[٢]. وقبل هذا التعديل وولدروج وإيست لأنه وإن كان لا بأس من أن توجد جغرافيا سوسيولوجية وأن من الممكن أن نتصور أن مثل هذا الفرع قد ينمو، إلا أن "من الصعب أن نرى لها ميدانا إذ ادعت كل من الجغرافية الاقتصادية والسياسية ميدانها الخاص." [٣]. وقد رفض البعض التعديل مثل جلبرت وستيل[٤] وواطسون[٥] وهوستن على أنه ليس سليما كما يسبب اختلاطا كبيرا وبلبلة. بل هناك أخيرا محاولة لإحياء الجغرافيا الاجتماعية ويحتفظ أصحابها لها بجغرافية السكان وجغرافية المدن وجغرافية الريف. Rural Geog. وعلى العموم فالثابت أن جغرافية المدن تطورت لطبيعتها الخاصة على خط واضح واستقلت عن جغرافية السكان أو المسكن التي كان البعض يدغمها فيها بصورة عامة على أساس أن المدن "سكان"، وحتى الآن لا يمكن دراسة سكان منطقة إلا بإدخال القطاع المدني فيها، ولكن لم يعد كافيا أن تدرس المدينة كمجرد سكان: لقد شبت المدن عن وصاية السكان، وكذلك عن المسكن habitat: فمن العسف أن نضغط دراسة المدن إلى ما يشبه دراسة المسكن الريفي. وبينما لا زال البعض يشك في جزء كبير من دراسة المسكن وأنماطه على أنها مجرد آخر صيحة وبدعة في الجغرافيا – the

---

(1) Vallaux, Camille, Géog, Sociàle: La Mer, 1908.

(2) Demolins, Eamond, Comment la Route Crée le Type Social. Essai de Géog. Social, Paris.

(3) Spirit & Purpose, p. 142.

(4) Gilbert, E. W, & Steel, R. W., "Social Geog. & Ito Place in Colonial Studies," Geog. Jour., 1945. pp. 118- 31.

(5) Op. cit., pp. 483- 4.

latest fad in geography[1]. - أصبحت المدن فرعا قائما بذاته في الجغرافيا البشرية:

"There has, indeed grown up a live "urban geography," an important and indeed indispensable sub-division of social geography [= human geog.], Wich bids fair to provide us with some of the generic concepts which are so deficient in the earlier "human geography"[2].

وبحكم طبيعتها كفرع أصولي، فإن لجغرافية المدن علاقات ارتباط وثيقة بالفروع الأخرى، وعلى الأخص بالجغرافيا الطبيعية وأشكال الأرض، وفي الجغرافيا البشرية بالاقتصادية أساسا: التجارة وجغرافية الصناعة والتعدين والنقل كما ترتبط في نوحي هامة بالجغرافيا السياسية، وفي نواحي أخرى بجغرافية السكان. وعلاقتها بالجغرافية التاريخية لا شك فيها، بل إن البعض يرى أنه لتكون دراسة المدينة صحيحة لابد أن تكون دراسة في الجغرافيا التاريخية[٣]. وفي هذه الزاوية ستبدو أهمية علم أسماء الأماكن Toponymie[٤] إذ كثيرا ما يكون الاسم وثيقة جغرافية أو أثرا جغرافيا له دلالته الطبيعية: hydronymie, oronymie أو البشرية: anthroponymie[٥]. وقد تقدمت هذه الدراسات الخاصة على يد ألبير دوزا Dauzat في فرنسا. لكن الأهم في علاقات جغرافية المدن أنها لا تنفصل عن إطار الجغرافيا الإقليمية، فالاحتفاظ به في الذهن دائما يؤدي إلى إثراء جغرافية المدن كما أن دراسة جغرافية المدن

---

(1) Hartshorne, p. 280.

(2) Spirit & Purpos, p. 152.

(3) Mitchell, J. B. Historical Geog. Lond, 1954, p. 125.

(4) Tulippe, O., Cousiderations sur la Géog. Dn Peuplement, Liége, 1932, p. 5, 25 – 6.

(5) Rostaing, Ch., Les Noms de Lieux, Coll. Que Sais – je?, Paris, 1945 pp. 5 – 8.

كفيلة بإثراء وتمكين الجغرافي الإقليمي. والواقع أن علاقة جغرافية المدن بالجغرافيا الإقليمية علاقة أوثق مما يقدر الكثيرون. فمما لا شك فيه أن دراسة مدينة ما هي كما يقول هارتسهورن نوع خاص من الجغرافيا الإقليمية(١). كما يقرر باروز من قبله "أنها ببساطة مرحلة من الجغرافيا الإقليمية(٢)". وعلى العموم فمن الخير لجغرافي المدن أن يذكر دائما أنه جغرافي أولا وقبل كل شيء، وأن جغرافية المدن لا تقع "بجوار" فرع معين أو أكثر، وإنما هي في الواقع تقطع عبر كل الفروع الأخرى وتماسها.

٢ – كيف ننظم مضمون جغرافية المدن؟ ما هو التبويب السليم لها؟ رأينا أن ظهور الكتب الأصولية textbooks في المادة دليل على بدء نضجها، ولكن قلتها والاختلاف الشديد بينها في تنظيمها للمادة دليل على أن هذا النضج لازال في أول مراحله، وأن تنضيد حقائقها لم يستقر ويتبلور بَعْدُ على ترتيب شبه ثابت متعارف عليه كما في فرع قديم ناضج كالجيومورفولوجيا مثلا – مع ملاحظة الفارق الأساسي في هذا الصدد بين طبيعة الجغرافيا الطبيعية والبشرية. كذلك يشمل بعض هذه الكتب حقائق منقولة عن العلوم الأولية المقابلة يعوزها الهضم والتمثيل الجغرافي، وبعضها يدرك قصوره كمحاولة تجريبية ويعتذر بأن(٣).

"such is the common lot of the pioneer."

وقد كان كتاب لافيدان Géog. Des Villes من أسبق الكتب الجغرافية ولكنه أضيق إلى حد بعيد مما يوحي العنوان(٤)، فهو يقتصر على الموضع وبعض الوظائف والتركيب البنائي للمدن. وقد تلاه بنحو عقد كتاب ديكنسون

---

(1) P. 398.

(2) Op. cit., p. 10.

(3) Taylor, Griff., p. viii.

(4) Sorre, p. 182.

City Region & Regionalism، وهو "ليس كتابا سهل القراءة"[1]، وهو وإن شمل دراسة وافية للتركيب الداخلي للمدينة وبعض نواحي الوظائف والتوزيع العام إلا أنه يعالج أساسا – كما يدل عنوانه – بابا محددا في جغرافية المدن هو "إقليم المدينة" أو مجالها، والمدينة في أي الإقليمية "الريجيونالزم". ولكنه في هذا المجال "أحسن مصدر جغرافي للموضوع برمته".

أما كتاب تيلور .Urban Geog فأعم وأشمل بكثير من سابقيه، فهو يعالج الناحية التاريخية بتفصيل بحسب الفترات ثم يعالج الناحية المعاصرة في حدود الضوابط الطبوغرافية وبعض الوظيفية، ويدرس عددا ضخما من الأمثلة الخاصة من مستويات مختلفة جدا قد تصل إلى لندن في ناحية وإلى قرى حقيقية في وديان الألب من ناحية أخرى، وقد يجمع تحت ضابط واحد بين "مدن مختلفة اختلاف فينا ونيوأورليانز وبرن فقط لأنها تقع على أنهار"[2]... وهو في كل هذا لا يقدم بالتأكيد نظاما أو برنامجا أصوليا منسقا، بل فيه كثير من التجاور البحت دون الترابط أو التسلسل. ويجمع النقاد على أن المحاولة مجرد كتالوج مفيد يختزل كثيرا من مقالات المجلات التي يصعب التوفر عليها أو الوصول إليها.

.."n'est pas un traité de géographie urbaine, mais apporte de nombreuse suggestions"[3].

ويضيف ديكنسون[4].

"The arrangement and content of the book reveal a dilemma of which, perhaps, the author was not aware".

(1) Gilbert, E. W., Geog. & Regionalism, in Taylor's Geog. in 20 th C., p. 370.

(2) Dickinson, Review in Geog. Rev., April, 1950, p. 339.

(3) Chabot, p. 20.

(4) Dickinson, ibid., pp. 339 – 46.

ثم ينتهي إلى:

".. the book falls short of its overall purpose.."

كذلك يصفه تريكار بأنه "manuel mediocre, fondé sur des theories préconçues" لأنه يحاول تطبيق نظرية تطورية هي مراحل المدن السبع، وإثبات العامل الجغرافي على المدن أي الحتم الجغرافي(١).

أما كتاب ديكنسون عن المدينة في غرب أوربا West European City فيلخص أولا عددا ضخما من المونوجرافات التفصيلية جدا للمدن الأوروبية ثم يستخرج منها قواعد أصولية: تاريخية أولا ثم معاصرة في ثلاثة موضوعات رئيسية: الوظائف والاستثمار الداخلي للمدينة land- use ثم التركيب form بما فيه الخطة وتواريخ المباني وارتفاعاتها والمنزل المدني ثم المناطق أو الحلقات المدنية داخل المدينة ثم خارجها أي إقليم المدينة.

وكان تريكار (١٩٥١) من أول الكتب شبه الكاملة في الموضوع وهو يبدأ بمورفولوجية المدينة من الداخل ويتوسع عن عمد في دراسة لاندسكيب المدينة paysage كالمسكن المدني أشكاله ومواده والشوارع والأماكن المكشوفة واستغلالاتها، ويرى أنها لم تلق عناية كاملة من الجغرافيين. ثم يدرس إطار الحياة المدنية: الخطة بكل تفصيل وعلاقاتها وضوابطها المختلفة وأنماط المدن من حيث الخطة.. إلخ. ثم يدرس التركيب المدني – يعني الوظيفي – ويتخذ "الحي" وحدته الوظيفية، ويحلل كل حي بتفصيل، ثم يتتبع العلاقات بين الأحياء المختلفة حيث تشرح مبدأ Zoning وينقده. هذا هو الجزء الأول – في موروفولوجية المدينة. أما الثاني فعن تنظيم شبكة المدن: فيدرس توزيعها على سطح الأرض ونموها، ثم العلاقات بين المدينة والإقليم المجاور، ثم بين المدن وبعضها البعض من تراتب في الوظائف وصراع على مناطق النفوذ والمجال

(1) p. 45.

المدني، وأخيرا من حيث الحجم والتباعد في صورة أبحاث كريستالر.

وفي ١٩٥٢ ظهرت ثلاثة كتب بعضها قريب جدا من البرنامج الأصولي الكامل. لكن أولها، كتاب جورج La Ville، بعد مقدمة منهجية قصيرة يقدم بالتأكيد محاولة جديدة وهامة للغاية، لأنها بالذات في "الجانب المهمل" من جغرافية المدن وهو أقاليم المدن في العالم. فعلى أساس التطور التاريخي والحضاري وعلى أساس الوظائف الاقتصادية والنظم الاجتماعية يقسم مدن العالم إلى سلاسل مدنية grandes series urbaines. وهذه الأقاليم مرسومة بريشة عريضة، ولكنه يمثل لها بأمثلة تفصيلية تماما لمدن منتخبة. فالكتاب لا يقدم برنامجا أصوليا ولكنه يضيف فصلا جديدا هاما. ويلخص Zelinsky نقد الكتاب في أنه أساسا في قالب قصة رحلة travelogue، ولكن حتى كذلك "لم ينجح تماما في عمله المحدود" لأنه لا يقدم تغطية إقليمية كاملة أو متجانسة "fragmentary"، وأسرف في الاهتمام بالعامل الاقتصادي الاجتماعي حتى لقد يتساءل البعض عما إذا كان الكتاب اجتماعيا قبل أن يكون جغرافيا، والخلاصة أن "George has failed to produce a complete theory of urban geography[1].

أما الثاني فكتاب شابو وهو على صغره أقرب محاولة على الأرجح إلى البرنامج الأصولي الكامل. فهو يقسم المادة إلى ثلاثة أقسام رئيسية – فللمدينة أولا وجهان، فلها كالفرد حياتان[٢]: حياة عامة عاملة فهي تعمل لتعيش: هذه هي الوظائف، فكان الكتاب أول من أفرد للوظائف مكانا وافيا في الموقع الصحيح. ثم هناك الحياة الخاصة الشخصية كيف تنظم المدينة حياتها الداخلية ومشاكلها الشخصية، كيف تنام، كيف تتغذى كيف تتنقل.. إلخ. فهذه هي دراسة المدينة من

---

(1) Zelinsky, Wilbur. Review of Pierre George. Econ., Geog., April, 1956, pp. 185 – 6.
(2) p. 19.

الداخل، بفصولها من موضع وخطة ومسكن مدني ونمو بنائي ومناطق المدينة الداخلية وتخطيطها، ثم الحياة العامة من نواحي ديموغرافية وحركة مواصلات وتموين وخدمات بلدية.. وأخيرا وثالثا هناك دراسة المدينة في الإقليم: إقليم المدينة، وشبكة المدن في الإقليم، ودرجة التمدين.

أما الكتاب الثالث سور فيبدأ بمقدمة في الظروف التاريخية والجغرافية لنمو المدن، تشمل الأولى عرضا تاريخيا إحصائيا قصيرا ونشأة وانحدار المدن، وتشمل الثانية الموقع والموضع معا. وبعد هذا تأتي دراسة الوظائف بالتفصيل ثم لاندسكيب المدينة paysage بما فيه الخطة ونوايا المدن والعزل الجنسي والحضاري. ثم يفرد فصلا للمدن الأمهات metropoles يعالج خصائصها وأحجامها والمجتمعات المدنية conurbations. وبعد هذا يدرس تركيب المدينة الداخلي بأقاليمها الحلقية وظيفيا وموروفولوجيا وسكانيا. ثم يلي فصل عن سكان المدن ووظائف المدن الداخلية من تموين وخدمات بلدية ومواصلات... إلخ، يقابل فصل الحياة العامة vie communautaire في شابو. ويعقد بعد ذلك فصلا عن المدينة كبيئة بشرية: كثافتها السكانية والمناخ المحلي المدني microclimat والوفيات والمواليد والأمراض والهجرات. وأخيرا يأتي فصل عن المدينة والريف: أي إقليم المدينة.

وهناك أخيرا كتاب سميلز يبدأ بعرض تاريخي قصير تحت عنوان أصول وقواعد المدن، ثم يدخل به إلى الفترات المعاصرة تحت نفس العنوان ولكن في صيغة لا يمكن أن نخطئها: دراسة وظائف. ثم يلي فصل عن إطار المدن: الموضع ثم الموقع. ثم فصلان عن مورفولوجية المدينة: أقاليمها الداخلية أولا ثم نموها ثانيا. وأخيرا فصل ختامي عن المدينة والإقليم – إقليم المدينة.

من هذا العرض نرى أن البرامج تتفاوت كثيرا، وليس منها ما هو جامع مانع تماما، كما أن هناك مجالا لبعض النقد والتعديل حتى نضع برنامجنا نحن

هنا. فكما يقرر زلنسكي، المادة الخام لجغرافية شاملة لمدن العالم تعد الآن موفورة تماما وأن:

"It would seem that the time is ripe for someone to step forward and develop these priniciples more fully into the rich, coherent body of theory that is now within reach".

ولكنه يضيف بحق أن هذه ستكون مهمة قاصمة للظهر!.. [1]. ولهذا فأول لابد من الإصرار على البدء بالنواحي الكبرى العامة لجغرافية المدن، النواحي الإقليمية، أو ما قد يسمى "بجغرافية المدن الخارجية" تمييزا لها عن دراسة المدينة نفسها من الداخل أو "جغرافية المدن الداخلية". أي في منهج تضيق معه بؤرة عدسة الدراسة باطراد من العام إلى الخاص - بعكس تريكار، ويقسم الكتاب إلى جزءين أساسيين. ففي الجزء الأول ينبغي أن يفصل الأساس التاريخي كباب أول يأتي في الصدارة، لأن أغلب المدن تضرب بجذورها في الماضي وربما كان بعضها يمثل إلى حد كبير "تاريخا محفوظا أو مجمدا"، كما أن الأساس التاريخي في ذاته أساس تصنيفي هام في أقاليم المدن. ومثل هذا الأساس التاريخي ينتهي بنا إلى الصورة التوزيعية الإحصائية العامة للمدنية وبهذا يقدم المادة الخام الماضية والمعاصرة التي لابد أن تسبق وضع الكليات والتعميمات. وتبدأ هذه بباب في دراسة وافية للوظائف، لا للتوزيع وإنما لتحليل طبيعتها وعملياتها وضوابطها. ودراسة الوظائف هي دراسة "مبرر وجود" المدن raisons d' être وتغطى بذلك بطريقة منهجية منظمة تلك العناوين الشائعة دون أن تكون وحدات دراسية مستقلة مثل "أصول" المدن Origins أو "نشأة" المدن أو أسس المدن Bases، أو تطور ونمو وانحدار المدن، Development, Growth, Evolution, Decline... إلخ لأن هذه تمثل إما

---

(1) Loc.cit.p.186.

موضوعات خلاسية متنافرة أو واسعة جدا يمكن أن تبتلع الجزء الأكبر من كل المادة، وإما أجزاء صغيرة من موضوع كامل. وبعد دراسة الوظائف يمكن أن ننظر إلى توزيع المدن – التوزيع بالمعنى الجغرافي، وذلك بتحليله إلى عوامله الأولية الثلاثة: التباعد والحجم والموقع، على هذا الترتيب من العام إلى الخاص. هذا يؤلف الباب الثالث. أما وضع التوزيع إحصائيا أو جغرافيا جملة أو تفصيلا في آخر الكتاب بعد أن تكون الدراسة الداخلية قد انتهت كما يفعل البعض فغير منطقي أو مطرد، كما أن الحاجة إليه تظهر قبل ذلك فيبعثر جزء منه أحيانا في تضاعيف الدراسة الخارجية والباقي في آخر الكتاب، ربما بكثير من التكرار. وهنا غالبا تنهي معظم الكتب الجزء الأول أي الدراسة الخارجية وتدخل إلى جغرافية المدينة الداخلية، ولكنها تصطدم فيها بالحاجة إلى دراسة مظاهر عامة منها لا تتباين داخل المدينة الواحدة وإنما بين المدن المختلفة أي مدن الأقاليم المختلفة: مثل المسكن المدني الذي يضعه شابو في دراسة مورفولوجية المدينة دون انسجام مع تباين المسكن المدني داخل المدينة، ومثل ديموغرافية المدن كنظام وتركيب عام يختلف عن ديموغرافية الريف بخصائص معينة مدنية الأصل، ولذا يؤجله شابو وسور إلى آخر الكتاب بعد أن يكون قد انتهى من الدراسة الداخلية ومن قبلها الدراسة الخارجية، مما لا يجعل تسلسلها منطقيا. كذلك أصبحت قاعدة لا تناقش في كل المؤلفات معالجة "إقليم المدينة أو مجال المدينة" Urban Field Region في آخر الكتاب بعد الانتهاء من دراسة المدينة الداخلية. ومع ذلك فالمنطق والواقع يوضحان أن هذه الدراسة ليست مترتبة على دراسة المدينة ولا علاقة حتمية بينهما بل هي ترتبط مباشرة وتترتب توا على عنصري الوظيفة والتوزيع، وهي كذلك ولذلك مظهر من الدراسة "الخارجية" للمدن. ولهذه الأسباب نقترح إضافة باب رابع وأخير إلى الدراسة الخارجية تحت عنوان إيكولوجية المدن الإقليمية يشمل ثلاثة عناصر: المسكن المدني، ثم ديموغرافية المدن، ثم إقليم المدينة. وهنا نلاحظ أن فصلا مثل "المدن

والحضارة" عند سميلز قد استبعد من برنامجنا لأن هذا الموضوع ليس وحدة مستقلة بل هو يقطع خلال كل عناصر المدينة تقريبا أي معظم فصول الكتاب فهو "كنمو" المدن عنوان مركب مطاط، ولذا نرد أجزاءه إلى أماكنها الطبيعية في البرنامج. والآن يمكن لدراسة المدينة الداخلية أن تبدأ، وهي التي نرى أن تقتصر على العناصر التي تتباين داخل المدينة الواحدة لا بين مدينة وأخرى أي إقليم وآخر. ومن الطبيعي أن تبدأ هذه الدراسة بباب في التركيب الخارجي أي الإطار الخارجي لرقعة المدينة نفسها: وعناصره: الموضع فالنمو فالخطة. وهنا نلاحظ أن الموضع انفصل عن الموقع كثيرا ليقع كل منهما في مكانه الطبيعي. أما الجمع التقليدي بينهما فليس ضروريا ولا يخدم عرضا منهجيا معينا. ثم يمكن أن ندخل المدينة في باب عن التركيب الداخلي أي تباينها ومناطقها الداخلية. ويشمل هذا العمليات الإيكولوجية التي تضبط هذا التركيب، ثم ندرس عناصر هذا التباين أصوليا، ثم ندرس تجمعاتها الإقليمية أي أقاليم المدينة الداخلية. وهكذا ينتهي الكتاب، ولكن الكتاب الأول – الكتاب الأصولي systematic. فلا زال هناك لكي نستكمل البرنامج الكامل أن ندرس أقاليم المدن في العالم أي الدراسة الإقليمية، وهي بطبيعة الحال تشكيل في قالب جديد لحقائق الكتاب الأصولي مع الاهتمام بإبراز الشخصيات الإقليمية لمناطق المدن في العالم. وهذا وإن كان يعني مباشرة وبالضرورة تكرارا لكثير من مادة الجزء السابق – تكرارا لا مفر منه ولا يُعتذر له كما يعلم كل جغرافي – إلا أنه تكرار جزئي لأنه انتخابي ينتقي من المادة عناصر وحقائق معينة هي التي تمنح الشخصية الإقليمية. ولابد أن نحدد أولا أسس تصنيف الأقاليم وهي تستمد من الأقاليم التاريخية والوظيفية والتوزيعية والمورفولوجية، أي التي تقابل أبواب الكتاب الأصولي. وبعد هذا التحديد ووضع شبكة الأقاليم المدنية الكبرى يمكن أن تبدأ دراسة كل إقليم بالتفصيل. وهنا لا نرى دراسة "أمثلة وعينات" لمدن مفردة بالتفصيل الكامل كما يفعل بيير جورج وديكنسون؛ **أولا:** لأن مثل هذه الدراسات هي جزء من

الجغرافيا الإقليمية بمعناها العام لا من جغرافية المدن الأصولية، **وثانيا:** لأنها بشدة تفصيلها المحلي البحت تمثل انقطاعا خطيرا في تسلسل الصورة الإقليمية العامة وفي مقارنة خصائص الشبكات المدنية الإقليمية. ولهذا فليس في عمل أصولي عن جغرافية المدن مكان لمونوجرافات المدن المفردة.

الفصـــل الرابـــع

من جغرافيـــــة الإســـــلام

من جغرافية الإسلام[أ]

ليس ثمة بين أيدينا – فيما نعلم – دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام في العالم. وحقا تحفل كتب المستشرقين والدراسات الإسلامية (الإسلامولوجيا كما يسمونها) بأكثر من مسح تخطيطي أو ثبت إحصائي للمسلمين في هذه القارة أو تلك، أو لانتشار الإسلام التاريخي هنا وهناك، ولكنها في الأعم الأغلب لا تعدو أن تكون خطوطا عريضة أو إلماعات سريعة متناثرة، وكثيرا ما تعتمد على أرقام قديمة أو غير وثيقة، وأحيانا – وهو أمر جد مفهوم – قد لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة.

ولهذا فنحن ما زلنا بحاجة إلى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحي واسع الانتشار، بالغ الخطورة في الحياة اليومية المعاصرة، المادية والثقافية، والاقتصادية والسياسية، لقطاع كبير من البشرية.

وما نزعم أن هذا البحث الذي نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغرة تماما، ولكننا نحسب أنه يقدم أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص. إنه مدخل، مدخل لن نعرض فيه لأكثر من واقع التوزيع الجغرافي الراهن للإسلام، في جولة استقراء أشبه بشيء بالرحلة العلمية travelogue، لا

(أ) انظر "العالم الإسلامي المعاصر"، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٠، ص ١١ – ٤٣.

تستدعي بالضرورة أن نعود إلى القصة التاريخية لانتشار العقيدة إلا بمقدار ما تلقي من ضوء على الصورة الراهنة، كما لا تتعرض بأي قدر من تحليل للجوانب السياسية أو الاجتماعية المنبثقة من الوجود الإسلامي أو فيه، فضلا عن أن تحاول اقتحام "نظرية عاملة" شاملة تجمع شتات الصورة في نظام مورفولوجي واحد أو تخضعه لفلسفة إيكولوجية أحادية. فإن بدا هدف هذا البحث لأول وهلة مجالا ضيقا إن لم يكن متواضعا، فإن الرحلة نفسها، إذ نلهث معها عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى، جديرة بأن تقنعنا أن بعض الاستقراء الأولي للمادة الخام قد يكون أشق منالا من بعض التنظير العلمي والتقنين أو التفلسف المنهجي الذي على أية حال، سوف نعود إليه في دراسة منفصلة بعد قليل.

أبعاد العالم الإسلامي

ليس سهلا أن نحصر عدد المسلمين في العالم بدقة، فما كانت الإحصاءات دائما ميسورة ولا كانت التقديرات بعدها شيئا يقيني. ومن ثم تتفاوت التقديرات تفاوتا كبيرا وكلها لا تقل الآن بحال عن ٥٠٠ – ٦٠٠ مليون، وربما رفعها البعض إلى ٧٠٠ مليون، ومن الكتابات الدارجة ما يقفز بالمجموع على غير أساس إحصائي إلى ثلاثة أرباع البليون. ومن الإنصاف، بل الواجب العلمي هنا أن نقرر أنه بقدر ما تجنح التقديرات الغربية إلى التهوين والتقليل من حجم الإسلام، بقدر ما تندفع بعض الكتابات الغربية إلى التهويل والتضخيم. وكل من الاتجاهين ليس من العلم ولا من الدين في شيء. ويبقى أن الإسلام يمثل بالتقريب ١٥% من سكان هذا الكوكب الذين يبلغون اليوم نحوا من ٣٥٠٠ – ٣٦٠٠ مليون نسمة، أو قل إن واحدا من كل ستة أو سبعة أشخاص في العالم يدين بالإسلام.

والإسلام بعد هذا في توسع ديناميكي مطرد بعيد المدى، بل لعله اليوم

أكثر الأديان نموا عدديا. فهو من ناحية يكسب كل يوم أرضا جديدة وقوى مضافة على امتداد جبهة عريضة في إفريقيا، وربما في آسيا المدارية بالإضافة إلى العالم الجديد شماله والجنوب. ومن ناحية أخرى يتفق أن أغلب مناطق العالم الإسلامي يعد من أقاليم النمو السكاني السريع حيث لم تزل معدلات المواليد مرتفعة في الوقت الذي انخفضت فيه معدلات الوفيات انخفاضا كبيرا. أي أن الإسلام يكسب. ويكسب بمعدل الربح المركب، ومن المرجح أن قوته النسبية في ديموغرافية العالم ستتمدد باستمرار، وقد لا تحل دورة القرن إلا وقد أصبح خمس البشرية من المسلمين.

ويجوز لنا هنا أن نشير – عابرين – إلى أثر الاستعمار على توسع الإسلام. فما أكثر ما يتردد في كتابات الاستعمار عن "فضله" في زحف الإسلام في القرن الأخير، خاصة في إفريقيا، بما قدم من تسهيلات حديثة ومواصلات لانتقاله، وبتبنيه له "كوسيلة ما للتحضير"، وبعدم معارضته له كقوة سياسية وكأداة تشريعية. وهذه النغمة تملأ المصادر الفرنسية والإنجليزية على حد سواء، كما لا تخلو منها الكتابات الهولندية عن إندونيسيا، وإن كانت أحد نبرة في الأولى بوجه خاص.

ولكن الحقيقة الموضوعية أن دخول الاستعمار جاء سدا أمام انتشار الإسلام، أثقل خطوته وإن لم يستطع حقًّا أن يشل حركته. ولولاه لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئا يختلف كثيرا عما هي عليه الآن. وعلى سبيل المثال، فإن التبشير الاستعماري، لا سيما في إفريقيا، إنما تم على حساب الرصيد أو الاحتياطي الكامن بالقوة للإسلام. وفي الهند – مثلا آخر – حيث عمق الاستعمار عن عمد الصراع الديني بين المسلمين والهندوس، أدى التعصب الجديد إلى وقف أو إبطاء زحف الإسلام الذي كان منطلقا في شبه القارة.

وإذا نحن أردنا أن نضع الإسلام في مقياس الأديان العالمية الكبرى، لوجدناه يأتي في المرتبة الثالثة بعد البوذية فالمسيحية، بينما بعده تأتي الهندوكية. وتكاد قوة الإسلام أن تتعادل عدديا مع قوة الكاثوليكية كبرى طوائف المسيحية. غير أن لنا، إذا اعتبرنا أن الأديان السماوية هي الأديان بمعنى الكلمة، أن نقول: إن العالم المعاصر يستقطب في واقع أمره في قطبين لا ثالث لهما: المسيحية والإسلام؛ فهاتان – توحيديا – هما الديانتان الفعالتان اللتان تتقاسمان، ربما تتنازعان، العالم اليوم. أما اليهودية فبحجمها (١٥ – ١٦ مليونا) وبإحجامها عن التبشير قوقعة حفرية بلا تحفظ أو تحيز.

ولئن بدا الإسلام اليوم – موضوعيا – أقل عددا وأضعف ناصرا من المسيحية، فما هو إلا نمط وتوازن حديث العهد نسبيا ولم يتحقق إلا من الكشوف الجغرافية وتوسع أوربا المسيحية في العالم الجديد والقديم، ثم أكدته بصفة حاسمة الثورة الديموغرافية العارمة التي عرفتها أوربا الصناعية منذ القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك فمن المرجح أن العكس كان صحيحا، بينما من المؤكد أن رقع الإسلام كانت أشد تراميا واتساعا من رقعة المسيحية. فكمؤشر وعلى سبيل المثال، حين كانت أوربا تعد ١٠٠ مليون نسمة في سنة ١٩٥٠، كان لإفريقيا نفس العدد، في حين بلغت آسيا ٢٥٠ مليون نسمة. وعدا هذا فهناك الدليل التاريخي غير المباشر، حين كان الشرق الإسلامي مركز الثقل الحضاري والسياسي في العالم الوسيط.

أما من حيث الرقعة ومدى الانتشار، فالإسلام دين عالمي أو كوكبي بلا مراء، رغم ما يدعيه البعض من أنه دين جزئي أو إقليمي أحيانا، أو من أنه دين "إفريقاسي" أحيانا أخرى. إذ يوشك ألا تكون هناك دولة في عالم اليوم لا يتمثل الإسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا أو غرب أوربا

مثلا. فإن عد هذا وجودا رمزيا، فإن جسم الإسلام الحقيقي – بيت الإسلام – يظل يشغل حيزا جغرافيا هائلا بأي مقياس.

فالإطار الخارجي الأقصى للإسلام يصل شمالا حتى أعالي الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض ٦٠ شمالا، ويترامى جنوبا حتى نهاية إفريقيا عند الرأس على خط عرض ٣٥ جنوبا. أما شرقا بغرب فنحن نلهث مع الإسلام من خط طول ١٢٠ شرقا حيث الفلبين إلى حوالي ٣ غربا عند الرأس الأخضر. فهذه شُقَّة تبلغ ٩٥ درجة بالطول ونحو ١٤٠ درجة بالعرض، أي حوالي ربع وثلث محيط الأرض على الترتيب، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي.

وبهذا أيضا فإن محيط الإسلام يتحدد أساسا بنصف الكرة الشمالي أولا، وبنصف الكرة القديم ثانيا. فالإسلام جنوب خط الاستواء أطراف وأصابع ثانوية، وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة. وهذا – بالمناسبة – هو النمط الهيكلي العريض لتوزيع السكان العام على الكرة الأرضية. ذلك الربع من الكرة الأرضية هو إذن "الربع الإسلامي" كما قد نقول.

ويمكننا أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة أخرى فنقول: إن الإسلام يمتد في قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلغراد في الشمال، أو في قاطع من فرغانة إلى غانة كما كان يقول مؤرخو الإسلام، أو في قاطع آخر من جبل طارق الأطلسي إلى سنغافورة جبل طارق الهادي، أو من مالاجا بالأندلس إلى ملقا بالملايو (وكل من الاسمين مشتق من تسمية الإسبان للمسلمين). كذلك يمكن أن نحدد قاعدة العالم الإسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال حتى قبائل التاجال (بالفلبين)، أو من غينيا إلى غينيا الجديدة. أما بالطول، فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والكيمبوبو. وبعامة، فتلك أبعاد لا تقل بحال

عن نصف مساحة العالم القديم، ولا يفوقها من بين الأديان جميعا إلا أبعاد المسيحية.

الإسلام بين القارات الثلاث

ويحسن هنا أن نتعرف على توزيع الإسلام بين القارات الثلاث. فأوربا، بما فيها الاتحاد السوفيتي الأوربي، لا تضم من المسلمين إلا نحو ١٥ – ٢٠ مليونا يتركز ٤ – ٥ ملايين منها في البلقان خاصة غربه وبالأخص في يوجوسلافيا، والباقي في سوفيتات جنوب الاتحاد في القوقاز وشمال البحر الأسود. تلك إذن مجرد بقايا محدودة الوزن، وجبهة متراجعة تاريخيا وحاليا إذا ما قورنت بإسلام أوروبا الوسيطة المتأخرة، بل بأوروبا القرن التاسع عشر.

فطوال العصور الوسطى كان الإسلام يغطي جزر البحر المتوسط لا سيما صقلية والبليار، فضلا عن الجزء الأكبر من إسبانيا وخاصة الأندلس. وقد انحسرت هذه الجبهة مع طرد المور. غير أن المد العثماني جاء كبديل وتعويض في أقصى الشرق، فكان الإسلام في العصور الحديثة أعظم ثقلا وأوسع انتشارا في كل جنوب شرق القارة حتى الدانوب والمجر إلى سهول جنوب أوكرانيا. ثم بدأ التقلص والانكماش إلى أن اشتد مع القرن الماضي، ثم استكمل بتبادلات السكان والأقليات في العشرينات الماضية، فقد كانت هذه التبادلات السكانية الضخمة في حقيقتها تبادلات دينية بين الإسلام والمسيحية.

وحتى في أيامنا هذه سجل الإسلام انكماشة أخرى حين نقل الاتحاد السوفيتي بالجملة كثيرا من الأقليات الإسلامية في القرم والفولجا إلى سوفيتاته الأسيوية أثناء الحرب الماضية وتقدم الألمان، وإن كان قد سمح لبعضها بالعودة في الستينات كذلك فقد أخرج كثيرا من المسلمين من بلغاريا واتجهوا إلى تركيا من عام ١٩٥٠.

والمحصلة النهائية هي أن الإسلام الآن ليس إلا ظلا باهتا لما كان عليه يوما ما في أوربا المتوسطية والجنوبية الشرقية. بيد أننا ينبغي أن نضيف أن هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج وليس ردة دينية بطبيعة الحال، فيكاد الإسلام أن ينفرد بين الأديان جميعا بأنه لم يعرف أي ارتداد عقائدي بمعنى التحول عنه إلى غيره وإن عرف الانحسار والتراجع الجغرافي في أكثر من مرحلة وفي أكثر من جبهة. هذا، وإذا كان الإسلام قد سجل "كسبا" حديثا في أوربا، ممثلا في الهجرة من المغرب العربي، خاصة من الجزائر، إلى فرنسا حيث يقيم نحو نصف المليون إلى المليون منهم، فإن هذا وضع خاص جدا ومؤقت ولا يمكن أن يعد توطنا حقيقيا دائما.

وإذا كان الإسلام قد تراجع أو تضاءل في أوربا، فهو على العكس من ذلك في إفريقيا: جبهة مدية زاحفة بقوة وإيقاع لا يعرفها في أي قارة أخرى كما لا يعرفها أي دين آخر سواه في الوقت الحالي في أي مكان. فلقد قدر عدد المسلمين في عام ١٩٣١ بنحو ٤٠ مليونا، بينما قدر في عام ١٩٥١ بنحو ٨٥ – ٩٠ مليونا، وهو الآن بلا شك يتعدى علامة المائة بكثير، ربما مائة ازدادوا عشرا أو خمسة عشر. وهذا من مجموع قدره نحو ٣٥٣ مليونا حاليا يعني زهاء ثلث القارة: وهي طفرة لا يمكن أن تفسرها الزيادة الطبيعية وحدها.

وهكذا إذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط "كبحيرة إسلامية"، فإنه قد كسب إفريقيا كقارة إسلامية. غير أن زحف الإسلام في إفريقيا المعاصرة يختلف عنه في آسيا الوسيطة، ففي الماضي كانت اكتساحة سريعة أخاذة وخاطفة كالطوفان، وهو الآن أقرب إلى الانتشار الغشائي (الأسموزي) الهادئ، وئيد ولكنه أكيد.

والإسلام بهذا وبعد هذا لا يزيد في إفريقيا عن قوته العددية في أي من

الباكستان أو إندونيسيا بكثير أو بالتقريب، وبالتالي لا يكاد يبلغ خمس قوة الإسلام في العالم. ولكنه مع ذلك كفيل بأن يجعل منها "قارة الإسلام" بالضرورة لأن الإسلام لا يصل إلى نسبة الثلث في أي قارة سواها. أبعد من هذا تعد إفريقيا، أكثر من أي قارة أخرى، جبهة ريادة وزحف الإسلام واحتياطي توسعه في المستقبل. فكل شيء بإجماع – وقلق! – كل الكتاب والمبشرين الغربيين قبل سواهم يشير إلى أن دين المستقبل في قارة المستقبل إنما هو الإسلام.

آسيا. بسهولة، هو مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيق مثلما كانت موطنه الأصلي، وحدها تضم أربعة أخماس مسلمي العالم أو نحو ٤٥٠ مليون نسمة – آخرون يقولون: ٥٥٠ مليونا. هي إذن للإسلام كأوربا للمسيحية: قلعة وكعبة وقلب. غير أن وزن الإسلام النسبي في آسيا أضعف منه بكثير في إفريقيا، حيث لا يزيد عن ٢٠% من مجموع سكان القارة البالغ نحو ٢٠٠٠ مليون (١٩٧١). أي أن المطلق هنا والنسبي في تعارض ما بين القارتين. هذا، بين قوسين، يكاد يكون عكس الوضع بين أوزان وأثقال قطاعي العالم العربي في آسيا وفي إفريقيا.

كذلك فإن الإسلام في شماله الأسيوي قد أصابه بعض ما أصاب الإسلام الأوربي من تقلص وتدهور لا يرجحه – فيما يبدو – ما يكسبه في جنوبه الموسمي، ومن ثم فهو إلى الاستقرار والثبات النسبي أقرب، وذلك على مستوى القارة ككل. والمقدر أن الإسلام في جنوب القارة لا ينمو الآن إلا بالزيادة الطبيعية للسكان وحدها وبمقدارها.

ولعله قد تبدت للقارئ الآن، من ديناميكيات الإسلام في القارات الثلاث، حركة محددة حديثة أو معاصرة، لا يمكن أن تخطئها العين. إن جسم الإسلام ككل يزحف تحت ناظرينا في حركة كتلية من الشمال إلى الجنوب، فيستبدل

على أطرافه الجنوبية عروضا سفلى بعروض عليا على أطرافه الشمالية. وهو بهذا يزداد دفئا أو حرارة إذ يزاد ابتعادا عن القطب واقترابا من خط الاستواء؛ إنه باختصار وبالمجاز "يهاجر" من أوربا إلى إفريقيا.

ولقد أعطت هذه الحركة مادة لناقدي الإسلام، كما أعطاها الاستعمار كثيرا من دلالة وتأويل. فهؤلاء الذين طالما قذفوا الإسلام بكل النعوت، فسروا هذه "الزحزحة القارية" للإسلام على أنها انزلاق من مستوى حضاري أعلى إلى آخر أدنى، بمثل ما هي تحول عن الجنس الأبيض المسيطر إلى الأجناس "الملونة" المستعمرة. ومن وذاك خرَّجوا ما شاء لهم من دعاوى، ليس أشدها نكرا أن الإسلام ليس دين الحضارة الراقية أو أنه "دين الملونين" أو دين مداري وحسب! ولسنا هنا في معرض الدفاع ولكنا نذكر هذه الاتهامات والتأويلات للتسجيل الموضوعي فقط.

مورفولوجية العالم الإسلامي

الآن، كيف يبدو النمط الجغرافي للإسلام أو كيف تتشكل موروفولوجيته العامة داخل إطاره الكبير في العالم القديم؟ ثمة شيء يجبهنا في شكل الإسلام، إذا نظرا إلى خريطة توزيعه الفعلي، نمط قوسي أساسي يتوسط المثلث القاري ويتعامد عليه بصورة ما كمحور هيكلي أو كنطاق محدب، يترامى بعمق متفاوت ولكنه عظيم، ويواكب بصفة تقريبية نصف دائرة المحيط الهندي ويوازيها ويكاد يحف بها وهذا القوس العظيم الذي يبدأ بجناح أيسر عميق عريض في إفريقيا من عروض مدارية سفلى، لا يلبث أن ينثني شمالا لينتظم غرب آسيا ووسطها في عروض أعلى بكثير، ثم إذا به يعود في جناحه الأيمن فينحني نحو الجنوب مرة أخرى وذلك في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي حيث يضيق كثيرا ويدق أحيانا حتى ليتقطع ويتبعثر، إلا أن ينتهي كما بدأ في عروض مدارية أو استوائية.

هذا في معنى حقيقي جدا هو "هلال الإسلام"، وفي قلبه، ونكاد نقول كنجمته، يستقر المحيط الهندي، الذي هو منطقيا وبالضرورة "محيط الإسلام". وإذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية أو شبه إسلامية تقليدية، فقد كسب المحيط الهندي الذي أصبح "البحر المتوسط" الجديد في العالم الإسلامي، الحضارمة والعمانيون إغريقه وبنادقته وإن لم يكونوا رومانه.. وبعامة، فمن هذا الشكل القوسي تنبثق حقيقة أساسية وهي أن دار الإسلام في إفريقيا تتركز بالدرجة الأولى في نصفها الشمالي، بينما تقع من آسيا في نصفها الجنوبي.

وقد يمكن أن نرى في تركيب هذا الهلال قدرا ما من السمترية والتناظر، فننظر إليه على أنه يتألف من قلب وجناحين: قلب قاري ضخم متصل يمتد بلا انقطاع من حدود الصحراء الكبرى حتى وسط آسيا؛ وبعده يبدأ جناحان جزريان يتحول الإسلام في كل منهما إلى أرخبيل أو مجموعة من الجزر صغرت أو كبرت، في الغابة في إفريقيا جنوب الصحراء أو في المحيط في آسيا الموسمية. إلا أن الجناح الإفريقي لا يقاس البتة وزنا وثقلا بالجناح الآسيوي. ولهذا فقد يكون من الخير لنا أن نكتفي بأن نميز في هلال الإسلام بعامة بين قطاعين جوهريين واضحين بما فيه الكفاية. قطاع غربي وآخر شرقي، خط التقسيم بينهما يمر بالتبت والهند.

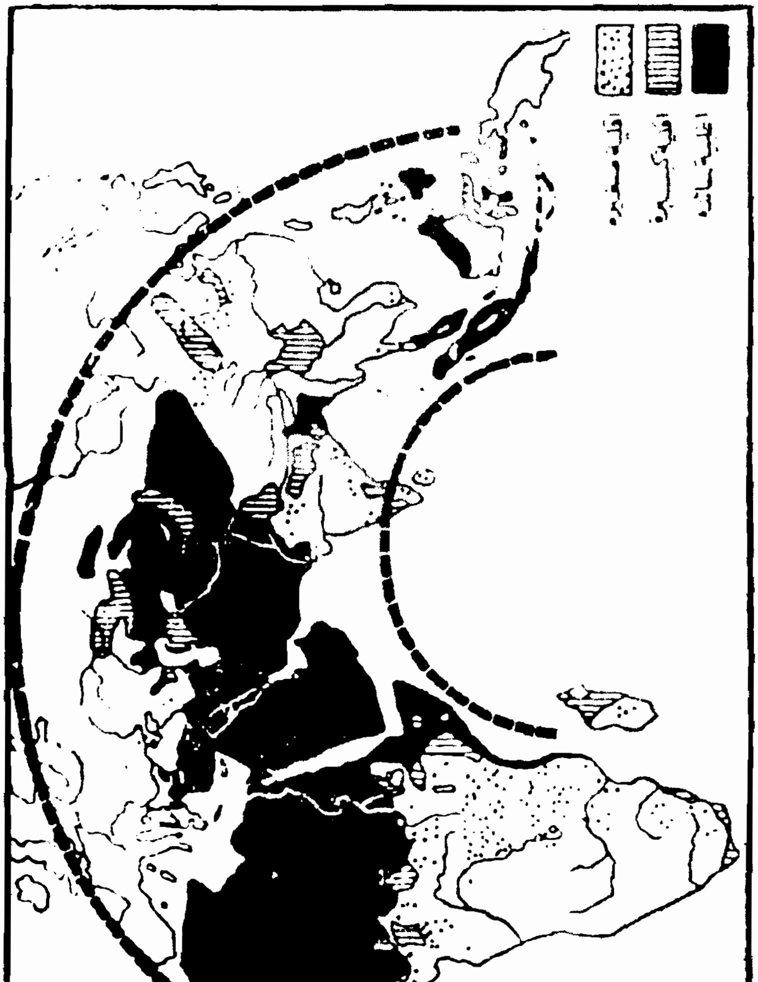
غير أننا قبل أن نتتبع كلا من هذين القطاعين بالدراسة، ينبغي أن نستدرك حقيقة هامة فنقول: إن الإسلام كدين وإن بدا في معظم رقعته نطاقا متصلا فهو كسكان يتألف أساسا وبالدقة من أرخبيل – ليس أرخبيل العرب إلا جزءا منه – من الجزر أو الواحات البشرية المركزة المتباعدة في وسط بحر الرمال أو بحر الماء. ولا تعارض في ذلك بين الحقيقتين الدينية والديموغرافية. فالنمط السكاني

كتل متبلورة يفصلها عن بعضها البعض مساحات شاسعة من الصحارى أو المرتفعات تكاد تكون من اللامعمور.

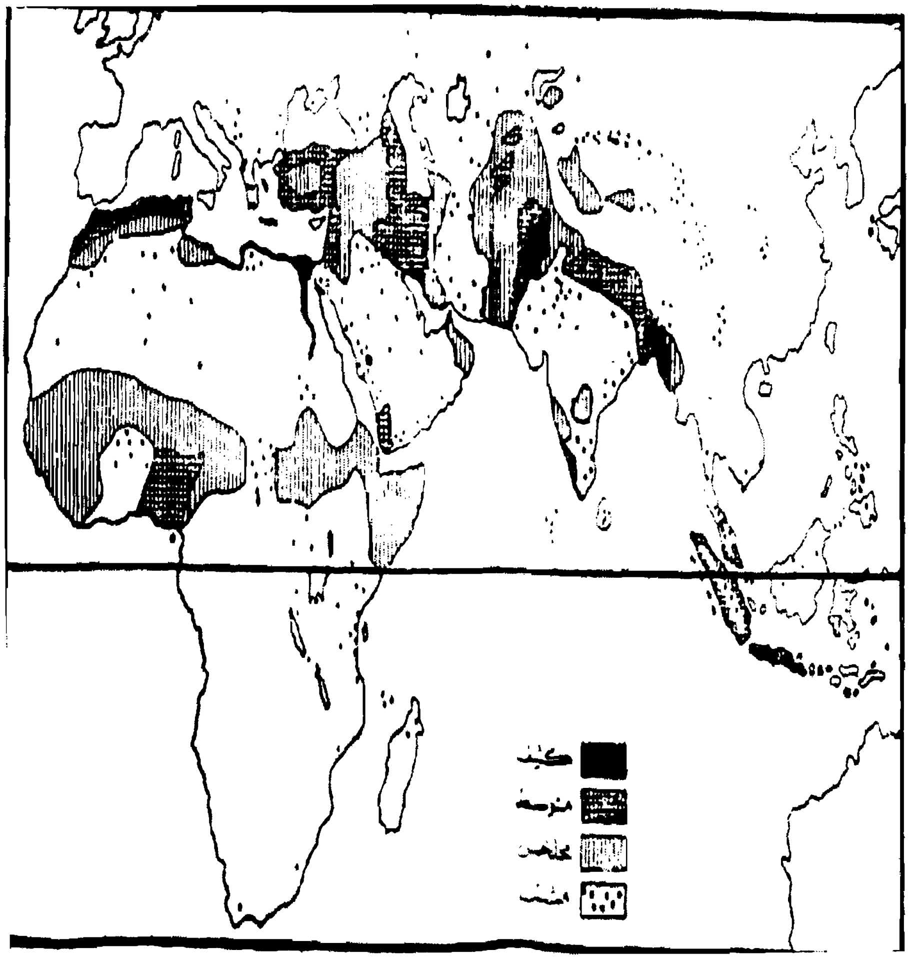
ثمة كتلة المغرب العربي مثلا، ثم مصر، وسودان السفانا على الجانب الآخر من الصحراء الكبرى، وهناك كتلة الشام والعراق، ونواة تركيا وإيران، وكتلتا الباكستان الغربية والشرقية، حتى نصل إلى الأرخبيل الإندونيسي، هذا عدا كتلة الصين وكوكبة الاتحاد السوفيتي. ويمكن أن نضيف في النهاية أن توزيع الإسلام بعامة يأخذ في ذلك كله صورة ونمط توزيع السكان عامة في محيطه إلى حد بعيد، وهذا أمر منطقي حيث إنه إن لم يمثل الأغلبية السائدة في كثير من مناطقه فهو على الأقل جزء لا يتجزأ من الغطاء البشري فيها.

بل إن هناك حقيقة أساسية وأسية في نمط توزيع الإسلام داخل محيطه الكبير تفرض نفسها على كل باحث. فهذا الأرخبيل المزدحم من الكتل السكانية المنفصلة لا ينتثر عشوائيا كسديم شتيت بلا خطة، وإنما هو يتنضد في سلسلة أو مجموعة متراصة من الحلقات – كحلقات الجزر المرجانية atoll – التي تتجاوز وتتعاقب وقد تتماس بطول امتداده من الشرق إلى الغرب، إن اختلفت في أقطارها وكثافاتها وأوزانها.

ففي إفريقيا الشمالية يتكثف الإسلام الفعال في حلقة متصلة بدرجة أو بأخرى تحف بأطراف الصحراء الكبرى، بادئة بكتلة المغرب الكبير ثم كتلة وادي النيل، وأخيرا يغلق الدائرة نطاق السكان الكثيف في شريط السفانا. فالصحراء الكبرى أشبه في هذا ببحر داخلي عظيم يتكدس المسلمون في شطآنه وسواحله أكثر مما يخوضون فيه. والواقع أن المحاور الرئيسية لانتشار الإسلام التاريخي في هذا النطاق إنما تبعت هذه الشواطئ الكثيفة العمران، ولم يخترق بحر الصحراء إلا شعب فرعية ملأت فراغاته بغشاء، وإن كان عالميا، خفيف جدا كأنه "تراب الإسلام".



(شكل ١) هلال الإسلام في العالم القديم



(شكل ٢) كثافة الإسلام السكانية . لاحظ النمط الحلقى فى توزيع كتل الإسلام

والمشرق العربي بدوره يمثل حلقة كلاسيكية هي "الحلقة السعيدة": الهلال الخصيب في الشمال تتممه في جانب كتلة مصر، ثم نطاق الكثافة الذي يحف بالجزيرة العربية على طول سواحلها ابتداء من الحجاز حتى اليمن والجنوب العربي ثم الخليج حيث تتصل الدائرة مع العراق. وداخل هذه الحلقة ليس ثمة إلا "قلب ميت" سكانيا، وإن يكن قلب الإسلام كله عقيدة. كذلك يمتاز توزيع السكان في تركيا تقليديا بتطرفه على الهوامش الساحلية خاصة الغربية والشمالية الغربية تاركا قلب الأناضول شبه ميت. وبالمثل تفعل الكثافة في هضبة إيران الطبيعية حيث يتركز السواد الأعظم من سكان إيران على هوامشها الشمالية والغربية وإلى حد ما الجنوبية، بينما تتم الدائرة مشرقا بكتلة السكان في أفغانستان والباكستان الغربية، تاركة قلبا ميتا آخر في وسط الهضبة بصحاريها الملحية.

وإذا اعتبرنا الإسلام في شبه القارة الهندية ككل لتكرر النمط مرة أخرى: تبدأ الدائرة بكتلة المسلمين الصلبة في الباكستان الغربية، وتستمر على طول نهر الجانج حتى تستقر على خليج البنغال في كتلة الباكستان الشرقية، ثم تكتمل الدائرة على طول سواحل الدكن – دون قلبها – شرقا وغربا. وفي غرب الصين في سينكيانج يرسم توزيع الإسلام نمطا حلقيا بيضاويا. وأخيرا يؤكد النمط نفسه – أو يشي بنفسه بالأحرى – في عالم جزر وأشباه جزر جنوب شرق آسيا. فعلى طول قوس جزر الملايو وإندونيسيا الفستونية نجده، حتى ينثني شمالا عبر سيلاويزي إلى جنوب الفلبين. ويمكن أن نعد الإسلام على الأطراف الجنوبية لفيتنام وكمبوديا نهاية الدائرة. بل حتى البلقان يمكن أن نتعقب هذا النمط الملح. فالإسلام هنا يتركز على هوامشه الحوضية في غرب يوجوسلافيا وألبانيا ثم شمال اليونان ثم تركية أوربا وأخيرا شرق بلغاريا.

القطاع الغربي من الإسلام

نستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا في عالم الإسلام بالتفصيل. القطاع الغربي يشمل الإسلام في إفريقيا وغرب آسيا – ومعها البلقان – وكل هضبة إيران ثم الباكستان الغربية، ثم يستمر في سهول طوران وتركستان حتى مشارف الفولجا والأورال شمالا وسينكيانج أو التركستان الصينية شرقا. يتأرجح وزن هذه الكتلة الضخمة حوالي ٣٨٠ – ٤٠٠ مليون نسمة، أي أنها تقترب من ثلاثة أخماس العالم الإسلامي جميعا. فإذا أضفنا أنها تغطي – مساحة – الرقعة الكبرى والكبرى جدا من أرض الإسلام، جاز لنا أن نعدها صلب ومركز ثقل الإسلام.

والقطاع ككل يبدو كقاطع ضخم بارز عبر العالم القديم، حتى ليحسبه البعض كل هيكل العالم الإسلامي، وهو ما ليس صحيحا بالدقة لأنه يغفل القطاع الشرقي برمته. أو قد يرى البعض في هذه الكتلة الماموث قارة داخل القارات، "قارة وسطى" كم يسميها مونتي V. Monteil، أو "جزيرة قارية" في صميم يابس العالم القديم. وأهم حقيقة جغرافية في هذا القطاع بلا ريب أنه بقعة زيت عظمى تمددت، كتلة واحدة متصلة لا انقطاع فيها وإن دقت كثافتها وتخلخلت كلما بعدنا عن قلبها بصورة عامة حتى تتعرج على أطرافها والهوامش في بروزات كالرءوس والخلجان، تتقطع كالجزر والأسافين في المحيط غير الإسلامي المجاور، وذلك كما على حواف الغابة المدارية في إفريقيا جنوبا وكما في البلقان وعلى أطراف القوقاز واستبس وسط آسيا شمالا.

والذي يفسر هذا الاستمرار الأرضي الطاغي هو أولا وبلا تردد قرب الكتلة جميعها من الموطن الأصلي للإسلام، فكانت قوة دفع العقيدة بكرًا فتية ونبض الانطلاقة مرتفعًا غلابا، فجاء انتشار الدين في كل الاتجاهات غطائيا عالميا وكاسحا، غير أن ثمة بعد هذا عاملا جغرافيا مساعدًا ومواتيًا، إن لم يكن ضاغطا، هو طبيعة الكتلة القارية المتصلة لا سيما في إفريقيا القارة – الكتلة بالضرورة.

العالم العربي

حوالي الوسط الجغرافي من هذا القطاع العربي من الإسلام يقوم العالم العربي كقلب العالم الإسلامي النابض، باعتباره مهد العقيدة وموطن الأماكن المقدسة، فالعالم العربي هو أولا النواة النووية في الإسلام، وهو بعد القطب المغناطيسي للمؤمنين. لكن العالم العربي بعد هذا أكثر من قلب: إنه أيضا رأس، ورأس مؤثر وموحٍ عند ذلك، على الأقل في القطاع الغربي من الإسلام. ذلك أنه يضم وحده أكثر من ١١٠ ملايين، الغالبية الساحقة منهم من أبناء الدين، يمثلون خمس وربما أكثر من خمس المسلمين جميعا، وأهم منها يمثلون قمة تطور وتبلور وأصالة العقيدة ونقاوتها مذهبيا. ولهذا كان أمرا مقدورا دائما ومن قديم أن يلعب العالم العربي في العالم الإسلامي دورا خاصا لا على المستوى الديني فحسب، بل وعلى المستوى السياسي كذلك.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن الإسلام يختلف في تاريخه وتوسعه عن بعض الأديان الكبرى الأخرى. فكثيرة هي الأديان التي نشأت في موطن - مشتل ثم هاجرت منه وهجرته كلية أو تقريبا لتنتشر خارجه أساسا كالبوذية بالنسبة إلى الهند وكاليهودية والمسيحية بالنسبة إلى فلسطين. لكن الإسلام وحده يتفرد أو يمتاز بأنه، رغم أن انتشاره الأكبر يقع اليوم خارج موطنه الأصلي في العالم العربي، فإن هذا الموطن لم يزل له معقلا أساسيا وظل دائما حقلا كثيفا من أخصب حقوله. غير أن الشق الأسيوي من العالم العربي إذا كان مهد الإسلام ومشتله الأول، فإن الشق الإفريقي هو اليوم حقله الرئيسي مساحة وسكانا، إذ يحتكر نحو ثلثي العرب (٧٥ مليونا) حيث لا يضم الأول إلا الثلث، وتستوعب مصر وحدها أقل قليلا من ثلث العرب المسلمين، وتكاد تعادل بذلك أيا من آسيا العربية أو مجموع المغرب العربي الكبير وتأتي بذلك رابعة أو خامسة دول العالم في عدد المسلمين.

بيد أن العالم العربي بعد هذا ينتظم نسبة مذكورة من الأقليات الدينية، وهو

أمر مفهوم تاريخيا وجغرافيا، لأنه هو أيضا مهد الديانات التوحيدية الأسبق. فرغم أن آخر وأحدث الغطاءات الدينية التي نشأت وانتشرت في المنطقة هي التي سادت في النهاية، إلا أن بقايا الغطاءات الأسبق والأقدم ظلت متوطنة في جيوب عدة هنا وهناك. على أن هذه الأقليات تختلف ما بين المشرق والمغرب. فصلبها في الأخير هو اليهودية حيث كانت قوتها تبلغ تقليديا نحو نصف مليون، مركزها الرئيسي في المغرب الأقصى (مراكش)، إلى أن بدأت أخيرا تتناقص بسرعة بالهجرة الخارجة.

أما في المشرق فإنها هي المسيحية أساسا، وتتركز في نواة صلبة رئيسية في مصر ونوية ثانوية في الشام. ففي مصر مليونان من الأقباط مع امتدادهم في السودان بين كتلتهم في مصر وكتلتهم في إثيوبيا. إلا أن هذا – نسبيا – لا يشكل إلا ٦% من مجموع سكان مصر. وعلى العكس من هذا الشام؛ فهنا لا يزيد حجمها عن المليون تقريبا، ولكنها بالنسبة أثقل وزنا من نواتها في مصر. فتتفاوت محليا ما بين نصف السكان في لبنان ونحو ١٦% في سوريا وأقل من ذلك في فلسطين.

لكن هذه جميعا هي الأقليات الدينية الوطنية، إلى جانبها ينبغي أن نضيف الأقليات الطارئة الدخيلة التي جلبها الاستعمار: اللاتيني في المغرب والصهيوني في المشرق. وهي في الحالتين تتناقض ونوع الأقلية الوطنية. ففي المغرب حيث الأقلية الوطنية يهودية، جلب الاستعمار اللاتيني – خاصة الفرنسي – نحو مليونين من المسيحيين تركز أكثر من نصفهم في الجزائر وحدها. ومن حسن الحظ أن التحرير قد صفى السواد الأعظم منها جميعا. أما في المشرق حيث الأقلية الوطنية مسيحية أساسا، حشد الاستعمار الصهيوني قطيعا خلاسيا مغتصبا من شذاذ اليهود يناهز هو الآخر المليونين ونصف المليون. وكنظيره في المغرب، لا يمكن إلا أن يعد انحرافة طارئة دخيلة، ولا يمكن إلا أن يلقى نفس المصير، وهو يوم قد يراه البعض بعيدا ونراه قريبا.

إفريقيا المدارية

من العالم العربي ننتقل إلى الإسلام في إفريقيا المدارية لنلقي -بتقريب شديد نحو من ٥٥ - ٧٠ مليونا من "المسلمين السود" أو "المسلمين البانتو" أو "الإسلام المداري" كما يسميهم الكتاب الأوربيون.

ويتوزع هذا النطاق أساسا بين غرب إفريقيا في الدرجة الأولى وشرقها في المحل الثاني. ففي غرب إفريقيا يستوعب الإسلام صف دول الصحراء والسفانا في الشمال (تشاد، النيجر، مالي، موريتانيا، السنغال، زمبيا) وصف دول السفانا والغابة في الجنوب، في الأولى كأغلبية مطلقة لا تقل عن ٩٠% بحال، وفي الثانية كأقلية هامة باستثناء غينيا التي يسودها الإسلام. في الأولى يتركز سكانا في الشريحة الجنوبية من دولة وإن كان عالميا كدين في رقعة الدولة، وفي الثانية يتركز سكانا ودينا في القطاعات الشمالية ويقل بسرعة واطرد كلما اقتربنا من الساحل.

وتفسير النمط الجغرافي الأخير في دول السفانا والغابة أن هنا التقى تيارا الإسلام من الشمال والمسيحية القادمة مع الاستعمار من الجنوب، فتركز الأول خاصة في الشمال السافاني وتوطن الثاني في السواحل الجنوبية. ولكن السيادة العددية العامة لا تتحقق لأي منهما، بل تظل للوثنية الاستحيائية. ففي الكمرون مثلا نصف مليون مسلم، وفي الفولتا العليا يؤلف المسلمون من طوارق وفولا وديولا نحو ٦٠٠ ألف، وفي غينيا "الصغرى" (البرتغالية) يجمع الماندنجو والفولا ١٧٢ ألفا، وثمة في ليبريا جماعات الماندتان الشديدة التمسك بالإسلام. وفي بقية وحدات السفانا والغابة ابتداء من سيراليوني حتى جمهورية إفريقيا الوسطى، بل وحتى جنوب السودان تسود الوثنية ولكن المسلمين كثيرون، كما أن بالكنغو، غير بعيد، نحو ١٠٠ ألف مسلم (الأرقام الأخيرة أرقام أوائل الستينيات).

ولكن نيجيريا لا شك أهم جزيرة إسلامية في إفريقيا السوداء، وتستدعي وحدها وقفة قصيرة. ففي عام ١٩٥٣ حين كان مجموع سكان نيجيريا الكلي ٣٠,٥ مليونا كانت نسبة المسلمين تتراوح حول ٤٤ - ٤٦%، أي تضم نحو الإسلام إلى ٧٠ أو ٨٠%، ولا يتسرب منه إلى الجنوب إلا أطراف ثانوية تهوي معها نسبته إلى الثلث في الغرب والصفر في الشرق. وفي عام ١٩٦٣ أتى أول إحصاء بعد الاستقلال، أتى نيجيريا بمجموع ٥٥,٥ مليون نسمة، أجمع الكل داخل وخارج نيجيريا على افتعاله ومبالغاته العامدة إلى درجة تسلبه كل قيمة. ويرجح البعض أن الرقم الصحيح ربما كان يدور حول الأربعين مليونا. فإذا صح هذا، فلعله كان في نيجيريا يومئذ نحوا من ١٨ - ٢٠ مليون مسلم، قد تصل اليوم إلى ٢٥ - ٢٧ أو ٣٠ مليونا، وهو ما يجعلها الدولة السادسة أو السابعة في عدد المسلمين في العالم والثانية في إفريقيا.

وعدا هذا فمن الواضح في نيجيريا أن الإسلام يرتبط بالسفانا أكثر منه بالغابة، ولكن أيضا بالسهول أكثر منه بالمرتفعات التي تحولت إلى ملاجئ للعناصر الوثنية المستضعفة الهاربة من زحف المسلمين الفولا والحوصا (الهاوسا)، ومثالها هضبة جوس (بتشي) في الوسط حيث تتكدس قبائل كالتيف Tiv والنوبي Nupe. وبين هذه الجماعات وأمثالها يتقدم الإسلام اليوم بخطى حثيثة، وأحيانا تفرض الشريعة الإسلامية نفسها قانونا لا دينا محل التقاليد القبلية الاستحيائية كما هو مشاهد بين النوبي.

أما إذا انتقلنا إلى الإسلام في شرق إفريقيا، فإن إثيوبيا هي النواة. ففيها يقدر المسلمون بنصف مجموع السكان الكلي الذي تتراوح تقديراته بين ١٢، ١٨ مليونا. وهنا يتبلور معامل الارتباط بين الإسلام والكنتور (خط الارتفاع): فيبدو الإسلام بوضوح دين السهول في الشرق والجنوب (إسلامبحري) حيث المركز

هرر وحيث العنصر السائد هو الجلا والدناكيل. هذا في حين أن الهضبة في الغرب هي القلعة المسيحية القبطية القديمة التي تمثل أكبر جزيرة مسيحية في القارة الإفريقية سواء أصيلة أو دخيلة. وتتكرر العلاقة في إرتريا حيث ينصف مجموع السكان (١,٥ مليون) بالتساوي بين الإسلام والأقباط، وحيث يتركز المسلمون في النصف الغربي السهلي والساحل السهلي بنسبة ٩٥% من مجموعهما في حين يركز الأقباط في النصف الشرقي الهضبي بنسبة ٨٥% من مجموعه.

وتنتقل إلى الصومال بأقسامه العديدة لنجد نسبة الإسلام ترتفع إلى أعلى ما تصله في إفريقيا – ٩٩% – ولكنه لا يزيد في جملته عن الثلاثة أو الأربعة ملايين عددا. ونحو هذا نلقاه على طول الساحل ابتداء من كينيا حتى الرأس. ولكن بثقل أساسي قطبه حوالي زنجبار، وبعمق متفاوت يصل إلى خط البحيرات ابتداء من فيكتوريا إلى تنجانيقا ونياسا. والإسلام هنا قديم الجذور، إلا أنه تلقى موجة جديدة في القرن الماضي والحالي مع هجرة الهنود إلى الساحل الشرقي لإفريقيا الجنوبية. وهذه هي الهجرة التي تعلل وجود أكثر من ١٥٠ ألف مسلم في جمهورية جنوب إفريقيا. والإسلام في كل هذا النطاق يتبع أساسا نمطا ساحليا في توزيعه، ويقل كلما توغلنا في الداخل وارتقبنا المرتفعات، كما أن تركزه في المدن أوضح. وهذا – سيلاحظ – على النقيض من الصورة مصدرا وموقعا في غرب إفريقيا حيث النمط داخلي لا ساحلي. وكل هذا يذكر بأصله البحري الذي جاء من جنوب الجزيرة العربية مباشرة ثم ارتبط دائما بساحل البحر. ففي جنوب إفريقيا مثلا يتوزع المسلمون كالآتي: ٤٦ ألفا في الكاب، ٣٥ ألفا في ناتال، ٢٨ ألفا في الترنسفال، في حين يختفون من الأورنج الداخلية (أرقام أوائل الستينيات المتاحة).

من البلقان إلى الباكستان

يبقى الآن من القطاع الغربي للإسلام أن ندرس امتداده في غرب ووسط آسيا خارج العالم العربي، وقد يجوز أن نضمنه أطرافه البلقانية كنقطة ابتداء. وتنقسم هذه الرقعة بوضوح إلى نطاقين، هضبي في الجنوب وسهلي في الشمال. فأما الأول فسلسلة متصلة من الأحواض الهضبية المرتفعة المغلقة حلقاتها: البلقان فالأناضول فإيران الطبيعية حتى مشارف السند. هنا يمكن أن نتكلم عن "الإسلام المعلق" الذي يعتلي ظهور هذه القلاع الطبيعية الشماء.

ففي البلقان يقع مركز ثقل الإسلام في هوامشها وحوافها الغربية الأكثر جبلية بصفة خاصة. فتجمع يوجوسلافيا وألبانيا فيما بينهما نحو ٣ – ٤ ملايين مسلم أو أكثر. وإذا كانت نسبة الإسلام في ألبانيا هي العليا حيث تصل إلى حوالي الثلثين، فإن قوته العددية لم تكن تزيد في عام ١٩٥٥ عن ٧٠٠ ألف، قل ثلاثة أرباع المليون أو المليون اليوم. وعلى العكس من هذا يوجوسلافيا، لا يعدو فيها الإسلام ثمن السكان نسبة (١٢,٣%)، ولكنه قد لا يقل الآن عن الثلاثة ملايين عددا. ويتركز مسلمو يوجوسلافيا خاصة في مقاطعات الجبل الأسود والهرسك والبوسنة، وتعد سراييفو وسكوبيه skopje المركز الديني للإسلام.

ثم نتجه جنوبا إلى اليونان حيث بلغ تعداد المسلمين في عام ١٩٥١ نحو ١٠٥ آلاف. والإسلام في اليونان يعني تو منطقة سالونيك التي كانت من مناطق الارتكاز التركي التقليدية في العصر العثماني. ويرتبط باليونان نواة أخرى من المسلمين في قبرص، ولكنها من أصل تركي خالص، تناهز المائة ألف نسمة من مجموع الجزيرة الكلي الذي يربو قليلا على نصف المليون. ولا يتركز المسلمون في قبرص في قطاع بعينه، ولكنهم أدنى إلى الانتشار في كل أجزائها بصفة عامة.

فإذا ما عدنا إلى جذع البلقان، يستمر الوجود الإسلامي على طول ساحلها الإيجي في تراقيا ثم في تركية أوربا حيث يتركز نحو ٣ ملايين من المسلمين. ومع ساحل البحر الأسود في شرق بلغاريا يستكمل الإسلام نمطه الحلقي، فنجد جزيرة إسلامية تستمر عبر الدوبرجه برومانيا حيث مصب الدانوب وتتعداه في رشاش متطاير إلى مشارف بسارابيا، وللمسلمين في بلغاريا تقدير رسمي وضع في عام ١٩٤٩ يدور حول ثلاثة أرباع المليون من مجموع كلي كان قدره نحو ٧,٦ ملايين، وكان ٦٣٨ ألفا من الأتراك أصلا، ١٢٣ ألفا من البلغار الذين يعرفون باسم البوماك Pomaks. وليس لدينا تقدير حديث، ولكن قد لا يزيد العدد اليوم عن ذلك كثيرا حيث قد تعرض كثير من البوماك الترك للطرد منذ عام ١٩٥٠ إلى تركيا.

أما تركيا نفسها فكتلة إسلامية ضخمة بلغ حجمها نحو ٣٤,١ مليونا في عام ١٩٧٠ بنسبة ٩٨,٩% للمسلمين. ولعلها الآن – كمصر – الرابعة أو الخامسة في عدد المسلمين بين دول العالم، والحقيقة المركزية في الإسلام التركي أنه تعرض في الفترة الحديثة الكمالية وقبل الكمالية لعملية تكثيف وتبلور تمت بطرق إيجابية وسلبية، إيجابا بنقل أكثر من ثلث مليون من المسلمين الأتراك من البلقان إلى الأناضول وإعادة نحو المليون من اليونان المسيحيين من آسيا الصغرى إلى وطنهم الأصلي، وسلبا بالمذابح والمعارك الحربية التي صفت عددا آخر من اليونانيين في الغرب، وعددا أضخم – يفوق المليون في بعض التقديرات – من الأرمن في الشرق. وبغض النظر عن الأسلوب، فقد أدى هذا لا إلى مزيد من "التجنيس الإثنولوجي" داخل الأناضول فحسب، وإنما كذلك إلى التجنيس الديني شبه المطلق.

وإذ ننتقل إلى هضبة إيران – بمعناها الطبيعي – نلقى كتلة إسلامية تناهز الخمسة والأربعين إلى الخمسين مليونا: نحو ٣١ مليونا في إيران، ١٦ في

أفغانستان، وتنفرد إيران بأنها كتلة الشيعة الأولى في العالم الإسلامي جميعا، فهنا موطن الاثنا عشرية التي يتشعع نفوذها بدرجة ما غربا في جنوب العراق، وبدرجة أقل شرقا في أفغانستان وبعض باكستان. ففي إيران لا تزيد السنية عن المليون أو المليونين، وعلى العكس أفغانستان لا تزيد الشيعة فيها عن المليون. هذا وينبغي أن نشير، على التخوم المشتركة بين كتلتي تركيا وإيران، إلى ألسنة جبلية يرسلها الإسلام في منطقة أرمينيا والقوقاز وأذربيجان من الاتحاد السوفيتي. فهنا يغطي الإسلام كثيرا من هذه العقيدة الجبلية ثم ينحدر على سفوحها الشمالية هابطا مع السهول حتى شواطئ قزوين الغربية في توزيع نقطي متقطع يؤدي بالتدريج إلى الإسلام الغطائي الذي يغمر سهول طوران شمال وشرق البحر.

أخيرا ينتهي خط إسلام الهضاب الجبلية في الشرق بكتلة باكستان الغربية. هنا شريحة طولية تتخذ من نهر السند محورا لها، وتمثل أكبر كتلة إسلامية منفردة في كل القطاع الغربي من العالم الإسلامي، وبكثافة نادرة كذلك. ففي عام ١٩٧٠ بلغ تعداد باكستان الغربية نحو ٥٩ – ٦٠ مليونا يمثل المسلمون منهم ٩٧,١%. وكما في تركيا، مر الإسلام هنا بعملية استقطاب وتركيز دموية هي الأخرى أو على الأقل رهيبة، تمت عن طريق المبادلات السكانية والهجرة بالجملة بين الهند والباكستان إبان التقسيم. ففي عام ١٩٤٧ عبر حدود البنجاب ٣,٥ ملايين، وفي عام ١٩٤٨ كان المد الأساسي حين غادر ٦,٥ ملايين مسلم الهند إلى غرب البنجاب بباكستان الغربية، بينما هاجر من الأخيرة إلى الهند ٦ ملايين من الهندوس والسيخ.

ومن الفولجا إلى سينكيانج

لا يبقى لنا الآن إلا أن نطل إطلالة من حالق، من سقف البامير أو سطح إيران، على وسط آسيا الذي ينداح من التركستان الروسية حتى التركستان

الصينية، لننتقل من إسلام الهضاب إلى إسلام السهول. فهنا سهل حوضي ساحق الأبعاد سحيق الموقع، سهل طوران أو التركستان الروسية، إن احتل موقعا هامشيا من العالم الإسلامي، فهو يكاد يحتل من العالم القديم قلبه الهندسي، ويوشك أن يكون قطب القارية فيه ممثلا أبعد قلب اليابس عن المحيطات. غير أنه في الشرق يرتفع سريعا وشديدا إلى هضاب وجبال التركستان الصينية (سينكيانج) التي تترامى حتى مشارف منغولي الداخلية والصين الحقيقية، ويعود الإسلام عليها معلقا مرة أخرى.

في هذه الدائرة موطن للإسلام قديم وعريق، مركز ثقله في التركستان الروسية وأطرافه في الصينية. ففي الأولى يتوزع الإسلام ابتداء من الفولجا، أعاليه وأسافله، بل من جنوب الروسيا الأوربية شمال البحر الأسود والقرم، ممتدا شمالا حتى عروض موسكو وبرم وأومسك، غير بعيد - يعني - عن الحدود الشمالية لجمهورية كازاكستان السوفيتية حاليا. وقد كانت سيادة الإسلام هنا تقليديا سيادة مطلقة أو شبه مطلقة بين القبائل والشعوب التركية المغولية من تركمان وكازاك وقرغيز وتاجيك وأزبك، إلى أن بدأ التوغل القيصري في القرن الماضي ثم تيار الهجرة السوفيتي الحديث من سالف الروسيا الأوربية.

فإذا كان مجموع السكان الكلي في المنطقة قد ارتفع كثيرا بالتنمية الاقتصادية الانفجارية وبالهجرة السكانية الداخلة، فإن نسب الإسلام قد انخفضت كثيرا، وكثيرا جدا أحيانا، بينما لم يزد عدد المسلمين في الأرجح كثيرا جدا. ويعطي تعداد عام ١٩٥٩ لجمهوريات وسط آسيا الخمس الرئيسية هنا نحوا من ٢٣ مليون نسمة، غير أن من الصعب أن نقدر عدد المسلمين منهم. ولكن المعروف أن نسبة العناصر الروسية المهاجرة تتراوح الآن بين ٦٠% في جمهوريات الشمال الأقرب إلى المصدر، ٢٠% في جمهوريات الجنوب الأبعد عنه.

ولما كانت جمهوريات الشمال هي إلى أبعد حد الأكثر تعدادا، وإن كانت بحكم ضخامة مساحتها الأقل كثافة، فإن هذا يعني على الجملة أن مجموع عدد المسلمين هو على الجانب السالب الخاسر، وأنهم إنما يظلون الأغلبية محليا فقط حيث حجم السكان الكلي ضئيل، بينما يتحولون إلى أقلية متضائلة حيث النصيب الأوفر من مجموع السكان الكلي. وليس من الممكن التنبؤ إلى أي مدى سيغرق الطوفان السلافي العنصر المغولي الأصلي أو يطمس معالمه الإسلامية.

أما عن التركستان الصينية (سينكيانج) فهي إلى حد كبير امتداد مصغر للإسلام في الروسية، وهي حلقة الاتصال وجسر الانتقال بين الإسلام في غرب آسيا وفي الصين الحقيقية، وكان ممر زونجاريا الشهير على تخومها الشمالية ممرا للإسلام في طريقه إلى الصين بمثل ما كان من قبل ومن بعد ممرا للطوفانات المغولية والتترية على غرب آسيا وشرق أوربا، كما كان "طريق الحرير" على تخومها الجنوبية طريق الإسلام الآخر حول الحوض. ويعد المسلمون هنا إثنولوجيا بدرجة أو بأخرى امتدادا عبر الحدود لكثير من شعوب التركستان الروسية، فإلى جانب عناصر الخوي واليوجور والسالار وخلخاس ونونجشيانج، يضم الإسلام أيضا عناصر من الأزبك والتاجيك والتتار والكازاك. ومن الصعب أن نحدد عدد المسلمين في سينكيانج التي تبلغ كلها ٥ – ٧ ملايين، ولكنهم على أية حال يشكلون الأغلبية الساحقة تقليديا.

القطاع الشرقي من الإسلام

عالم آخر برمته يفصله عن كتلة الإسلام المتصلة في الغرب برزخ أرضي عريض وصريح يمتد على محور شبه جزيرة الهند وهضبة التبت. ذلك هو القطاع الشرقي من العالم الإسلامي. وما يقصد بهذا أن الهند تخلو من الإسلام وإن فعلت التبت، وإنما المسلمون ها هنا أقلية ضئيلة نسبيا أولا، وأقلية

مبعثرة في خضم الهند الشاسع ثانيا. وهذا الانقطاع المحوري الرئيسي هو الذي يفسر انشطار دولة الباكستان إلى إقليمين منفصلين يفصل بينهما برزخ أرضي عرضه ١٠٠٠ ميل كاملة. وتركيب الباكستان السياسي بهذا أبرز مظهر ونتيجة – ونوشك أن نضيف: وضعية – لانقسام هلال الإسلام إلى قطاعين رئيسيين.

وهذا ما يضع أيدينا على السمة الجوهرية في صورة الإسلام في هذا القطاع الشرقي. الجزرية هي تلك السمة، والتقطع هو مفتاحها. فعلى النقيض من القطاع الغربي، أهم ما يميز القطاع الشرقي أنه أرخبيل من الإسلام يتألف من كوكبة محدودة العدد من الجزر الحقيقية في إندونيسيا أو المجازية في تضاعيف الغابة الموسمية على القارة؛ جزر صغير اتساعها نسبيا ولكن ضخم حجمها سكانيا بفضل كثافة عنيفة تعوض بها عن المساحة. ولا شك أن هذا التقطع الأسي يعكس إلى مدى بعيد درجة البعد عن قلب الإسلام في مهده العربي، فمع المسافة السحيقة من الطبيعي أن تضعف قوة الاندفاعة وأن يتقطع نفس الحركة. وكذلك وبنفس القوة فهو انعكاس لطبيعة المسرح الجغرافي هنا: أشباه جزر وجزر قطعتها الطبيعة بالبحار القارية من الخارج وبالجبال الوعرة في الداخل.

وعلى الخريطة يبدو هذا القطاع الشرقي هزيلا للقطاع الغربي بالغ الضآلة في امتداده ومساحته، حتى ليوشك في مجموعه ألا يزيد عن شريحة منه في حجم الجزيرة العربية مثلا. ولكنا هنا في عالم الكثافات السكانية الثري، وفي مشتل متوطن مزمن للبشرية لا يداني في اكتظاظه. من هنا تتكشف الحياة وتتكدس وتتضاغط إلى أعلى بدلا من أن تنساح أفقيا؛ ومن هنا تتعارض دلالة الخريطة الجغرافية ودلالة الجدول الإحصائي، ومن هنا وزن القطاع في عالم الإسلام. فهنا ما لا يقل عن ٢٥٠ مليون مسلم تعادل خمسي المسلمين في العالم بالتقريب.

ومن هذا الاحتشاد الضخم في عدد قليل من النوبات، لم يكن غريبا أن نجد هنا في القطاع كبرى دول العالم الإسلامي قاطبة الباكستان وإندونيسيا، بل حتى حيث يتحول الإسلام إلى أقلية نلقي متناقضة أكثر إثارة وهي أنه يظل قريبا من الصدارة كما في الهند حيث تأتي – بعدهما – الثالثة بين دول العالم من حيث عدد المسلمين، وحيث تضم منهم أكثر مما تضم أي دولة إسلامية بحتة في القطاع الغربي بما في ذلك نواته العربية!.

ويمكن أن نحلل هذا الأرخبيل الإسلامي – مورفولوجيا – إلى خطين محوريين من فستونات الجزر القوسية الواضحة بدرجة أو بأخرى. ففي الشمال أقل الخطين وزنا، حيث يجمع بين جزيرة الإسلام في شمال غرب الصين وكوكبته المنتثرة في شرقها حتى ينتهي إلى الفلبين. وفي الجنوب المحور الأساسي الذي يجمع بين جيوب الإسلام في الهند وجنوب غرب الصين حتى يصل الملايو وإندونيسيا. غير أن من الخير لنا أن نتخذ الوحدات السياسية أساسا لدراستنا التحليلية، ولتكن الصين بدايتنا حتى نلتقط الخيط في أقرب موضع تركناه من القطاع الغربي.

إسلام الصين

في الصين ظل المسلمون لفترة طويلة يقدرون تقليديا بما يتراوح بين ٢٠، ٣٠، ٤٠ مليونا، وربما وصل بهم البعض إلى ٥٠ مليونا، وكان هناك من يخمن نسبتهم بنحو ٥% من مجموع السكان. ولو صحت هذه الأرقام والنسب لحق أن نرفع حجم الإسلام الصيني إلى حد قد يجعل الصين – لا الهند – ثالثة دول العالم من حيث تعداد المسلمين. ولكن يبدو أن الإسراف في التفاؤل كان يحكم هذه التقديرات، فقد خرج تعداد الصين الشعبية الأول (١٩٥٣) بما لا يزيد عن ١٠ ملايين مسلم فقط، أغلبهم من العناصر التركية، وليس أقلهم خارج الصين

الحقيقية، فإن صح هذا الرقم الذي يهوي بنسبة الإسلام من جزء من عشرين إلى جزء من خمسة وسبعين. فهو عدا خيبة الأمل فيه جدير بأن يغير من تقديرنا لحجم الإسلام بعامة ولوزنه في آسيا بخاصة.

ومهما يكن من أمر، فالمسلمون في الصين يوجدون في كل مقاطعة، غير أنهم يتركزون في ثلاث جزر أساسية ترسم فيما بينها زاوية قائمة بالتقريب. أولا وأهمها هي منطقة الشمال الغربي في مقاطعات كانسو (الأقرب إلى سينكيانج) ثم شنسي، شانسي، وهونان. ذلك مركز الثقل. أما الجزيرة الثانية ففي الشمال في مقاطعات هوبي وشانتونج وتجاه تخوم منشوريا، ومركزها التاريخي حول بكين. وفي الجنوب الغربي في يونان تتوطن الجزيرة الثالثة. وليس يفصل بين هذه النوايا ثغرات حقيقية؛ فعلى الطرق بينهما يظل للإسلام وجود خاص كما في حوض ستشوان مثلا.

وعلى الفور يشكل هذا التوزيع مؤشرا إلى، وانعكاسا لطرق دخول الإسلام في الصين. فرغم أن العلاقات التجارية البحرية بين العرب والصين تسبق العصر الإسلامي بكثير، ورغم جاليات التجار العرب ثم المسلمين في مدن وموانئ الصين الساحلية ابتداء من كانتون حتى بكين طوال أو خلال العصور الوسطى، فإن البحر لم يكن قط طريق الإسلام إلى الصين. وحتى الوقت الحالي لا يزيد المسلمون في موانئ ومقاطعات السواحل عن عشرات من الآلاف. إنما دخل الإسلام الصين من الغرب، من القارة، من الطريق البري، ابتداء من سينكيانج وامتدادا لها. وهذا يفسر موقع جزر الإسلام الثلاث على الأطراف الغربية للصين الحقيقية، كما يوضح دور نواة الشمال الغربي الرئيسية كأرض الزاوية في التوزيع والانتشار والتي لعبت دور الرافعة في الإسلام شرقا وجنوبا، ورغم أن بعض العناصر العربي نقلت الإسلام إلى الصين مبكرا وذابت

في السكان، فإن العناصر المغولية التركية من رُحَّلِ التركستان بشقيها هي نقلة وحملة الإسلام الحقيقيين إلى الصين، وذلك في هجراتهم وغزواتهم المتواترة من قلب الاستبس إلى الصين. وهذا يفسر أن كثيرا من المسلمين في الصين ينتمون إلى نفس الشعوب والقبائل الإسلامية التي رأينا في التركستان كالسالار والخوى واليوجور.. إلخ.

في الهند والباكستان الشرقية

فأما في الهند فقد عد في عام ١٩٥١ نحو ٣٥,٤ مليونا من المسلمين من بين مجموع السكان البالغ يومئذ ٣٥٦ مليونا أي بنسبة العشر تقريبا. واليوم إذ تعد الهند ٥٥٠ مليونا (١٩٧١) فإن حجم الإسلام بها لا يقل عن ٥٥ مليونا وقد يصل إلى ٦٠ مليونا. وهذا يزيد على نصف سكان الباكستان جميعا وعلى ضعف عدد الهندوس في كل الباكستان. ويؤكد أن التقسيم السياسي لم يحل المشكلة الدينية ولا جانس التركيب الديني. ورغم أثر الاستعمار التحديدي والتجميدي على توسع الإسلام في الهند، فهو لا يعدم تحولات هامة حتى الآن، ولو أنها تتم أساسا بين طبقة المنبوذين الذين قد يمكن اعتبارهم الاحتياطي الكامن للإسلام في هند المستقبل.

ومراكز الإسلام في الهند نوعان: الأول مناطق تبدو كالهالات أو أشباه الظلال حول شطري الباكستان اللذين يأخذان دور النواة والركيزة. وهذه المناطق ترسم بالتالي شبه خط يصل بين النواتين بطول نهر الجانج. ويتمثل هذا في كشمير التي يسودها الإسلام وتؤلف في واقع الأمر ورغم الوضع السياسي استمرارا وجزءً من كتلة الإسلام في الباكستان الغربية. كذلك يتمثل حول الباكستان الشرقية حيث نجد نسبا مرتفعة بوضوح في الإسلام، فتصل إلى ٢٢,١ % في أسام، إلى ٢٠% في البنغال الغربية (التي تتبع الهند)، وإلى ١٤,٣% في أوتاربرا ديتس التي تلاصق البنغال الغربية تجاه الغرب.

بعد هذه المناطق جنوبا تنخفض نسبة الإسلام بشدة حتى تعود مرة أخرى فترتفع نوعا في جنوب الهضبة على شكل رقع وجيوب، خاصة في حيدر آباد ومدارس (٩,١%)، مع ميل واضح إلى الازدياد على السواحل وخاصة الغربية. وهذه الجزر الإسلامية في جنوب الدكن هي النوع الثاني من أنماط توزيع الإسلام في الهند. وإليها ينبغي أن نضيف إسلام سيلون حيث جاءها من البحر وحيث يقدر عدد المسلمين، وأغلبهم من التاميل، بنحو المليون أو أكثر من ١١ – ١٢ مليونا أي بنسبة العشر تقريبا. وبالمثل تضيف أرخبيل جزر الملديف المرجانية – ١٠٠ ألف نسمة ويزيد – كلهم يدينون بالإسلام على وجه الإطلاق.

وهنا لابد أن نتساءل لماذا ينشطر مجال الإسلام في الهند إلى دائرتين منفصلتين، واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب، بينهما برزخ لا يلتقيان، فضلا عما يترتب على ذلك من اختلاف في العنصر، هند – أوربيون في الشمال كإخوانهم في العقيدة في الباكستان، دارفيديون في الجنوب. تلك في الحقيقة نتيجة منطقية إذا اعتبرنا الحركة التاريخية والظروف الجغرافية. فنطاق الشمال هو امتداد مباشر لكتلة الإسلام المتصلة في غرب آسيا حتى الباكستان الغربية. فسهم الإسلام هنا أتى من الشمال. أما دائرة الجنوب فقد أتاها الإسلام من الجنوب، من مصدر مختلف هو البحر، على يد التجار العرب وربما الإيرانيين من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج. ومن بوابة ساحل الملبار توغل إلى الداخل حتى وسط الدكن شمالا وحتى سيلون جنوبا. وهذا ما يفسر في نفس الوقت تكاثف الإسلام نسبيا على ذلك الساحل الغربي.

بعد هذه الشظايا المتناثرة نسبيا في الهند نصل إلى أول كتلة كبيرة في هذا القطاع الشرقي من العالم الإسلامي، وذلك في الباكستان الشرقية. فهنا كان ٤٣,٨ أو ٤٤ مليون مسلم من مجموع السكان البالغ زهاء ٥٧ مليونا عام ١٩٦٥ والذي وصل الآن (١٩٧١) إلى ٧٠ مليونا. وهنا يبرز فارق بين شطري

الباكستان. فرغم أن الباكستان الشرقية أكثر سكانا من الغربية، فإنهما أدنى إلى التعادل في قوة عدد المسلمين، وذلك لأن نسبة الإسلام في الشرقية أقل منها في الغربية. فبينما وجدنا ٩٧,١% من كل سكان الباكستان الغربية من المسلمين، تضم الشرقية أقلية هندوكية كبيرة ولا تزيد نسبة الإسلام عن ٧٦%. ولهذا فإذا تعادلت قوة المسلمين العددية المطلقة في الكفتين، فإن الكفة الغربية ترجح بالنسبة. ولعل هذا أن يفسر لماذا كانت الباكستان الغربية هي الإقليم النواة ومركز الثقل السياسي في الدولة الدينية المشطورة.

هذا وقد تعرضت الباكستان الشرقية كالغربية لتبادلات سكانية ضخمة، ولكنه أقل نسبيا، مع الهند بعد التقسيم. ففي عام ١٩٤٨ - ١٩٥٠ قذفت الاضطرابات الدينية بأربعة ملايين لاجئ منها إلى الهند، وتلقت بالمقابل مليون مسلم. ومن المفيد أن نذكر أن مسلمي الباكستان الشرقية ينتمون إثنولوجيا إلى نفس العنصر الذي ينتسب إليه مسلمو الباكتسان الغربية وهو الهندو - أوربيين أو الهندو - آريين.

جنوب شرق آسيا

وإذ نتابع رحلتنا إلى نهاية هلال الإسلام في جنوب شرق آسيا، لابد أن نذكر أولا حقيقة أساسية مفتاحية. فهنا لم يأت الإسلام عن طريق القارة أي من الطريق البري، وإنما بالطريق البحري جاء. أما لماذا انتهى دور الطريق البري عند هذا الحد وأعطى مكانه للطريق البحري، فلعامل جغرافي طبيعي بحت ومقنع بما فيه الكفاية، فإلى الشرق من الباكستان الشرقية حيث "كوع" الهملايا الشهير، تتحول السلسلة الجبلية الألبية إلى محور شمالي - جنوبي وتقوم كحائط شاهق عريض شديد الوعورة كثيف بالغابات. وقد كان هذا هو العامل الأساسي الذي فصل الهند حضاريا وتاريخيا إلى حد كبير عن الهند الصينية ووضع حدا

لانتشار نفوذها الثقافي والسياسي منذ فجر التاريخ، وهو نفسه الذي أوقف تقدم الإسلام فيما بعد في هذا الاتجاه، حتى جاء راكبا البحر من الجنوب. وهذا ما يفسر انقطاع الإسلام وتفتته المتزايد على القارة بعد أن نغادر الباكستان الشرقية، بل يفسر كذلك لماذا استمدت جزيرة جنوب غرب الصين إسلامها من الشمال الغربي وليس من كتلة الباكستان الشرقية رغم قربهما النسبي.

ولمحور الطريق البحري قطبان أساسيان: الجنوب العربي، وخاصة حضرموت، كمركز إرسال، وشبه جزيرة الملايو كمركز استقبال وإشعاع. فالملايو هي بؤرة توزيع ومحطة توصيل الإسلام في كل دائرة الجنوب الشرقي من آسيا. وكما أتى الإسلام إلى الملايو من البحر، فقد تشعع منها وهاجر – والملايون أهل بحر وتجارة – في كل جنوب شرقي القارة بالبحر أساسا. بل إن التركيب الجنسي للمسلمين في أغلب وحدات جنوب شرق آسيا يتحلل في النهاية إلى قاعدة من الأهالي المحليين وخميرة نشطة من الملاويين المهاجرين! والمحصلة النهائية أن الإسلام هنا إسلام سواحل في الدرجة الأولى، والجاليات الإسلامية تقتصر على تجمعات ساحلية، خاصة حول مصبات الأنهار والدالات الرئيسية، وقل أن يتوغل في داخل اليابس.

ولنفصل. جذع الهند الصينية نفسه "انخفاض" إسلامي أو شبه فراغ تقريبا. فليس ثمة في بورما إلا ٤% مسلمين أو نحو المليون إلى المليون ونصف المليون تقريبا. ومثل هذا العدد أو أقل – ٧٠٠ ألف إلى مليون – نلقاها في تايلاند. غير أننا إذا قلنا الإسلام في تايلاند فقد قلنا في أقصى جنوبها المتطرف، أو القطاع الشمالي الدقيق من شبه جزيرة الملايو وليس جذع تايلاند نفسها. فالحقيقة أن إسلام تايلاند يمتاز بالتركيز العنيف شبه المطلق في هذا القطاع، وهو بهذا ليس إلا امتدادا عبر الحدود السياسية المصطنعة لكتلة الإسلام في

الملايو. وبالفعل فقد كانت تلك المنطقة أصلا من ولايات الملايو. كما تخضع اليوم لنفوذها وإشعاعها الديني خاصة من ولاية كيلانتن الملاصقة.

ولكن قبل أن نعبر إلى الملايو، هناك كمبوديا وفيتنام. فعلى الجانب الآخر من خليج سيام، الذي يمكن عبوره بالشراع في ساعات، يمتد نفوذ إسلام الملايو على الحافة الجنوبية للهند الصينية ففي كمبوديا أكثر من ١٠٠ ألف مسلم يستقرون عموما على الساحل وشواطئ الأنهار، زراعا وسكان مدن، حول نهر الميكونج وبحيرة تونلي ساب. ويتألف هؤلاء المسلمون من العنصر الملاوي المهاجر الذي أدخل الدين هنا. ومن عناصر التيام Cham المحلي (وهكذا ينطق ولكن هكذا تقليديا يكتب) الذي تحول على أيديهم في تاريخ حديث جدا. ومن هؤلاء التيام المسلمين شريحة قزمية تقع عبر الحدود في فيتنام الجنوبية على الساحل جنوب نها ترانج Nha Trang ولا تزيد عن الخمسة آلاف وتعرف بالتيام باني Cham Bani (هل تعني بني الإسلام؟ - هكذا يتساءل بيير روندو). كذا تعود الملاوية بجزيرة إسلامية صغيرة أخرى في منطقة Chauduc إلى الجنوب الغربي من سايجون.

من هذا الإسلام الفسيفسائي نعود إلى الملايو، الكتلة – الأم هنا، لنجد نحوا من ٥,٥ ملايين من المسلمين يؤلفون حوالي ٥٥% من سكان الملايو البالغين نحو ١٠ ملايين في عام ١٩٧١. أغلبية، ولكنها ضئيلة بوضوح، ولا تتناسب كما يلوح مع الدور التاريخي الريادي للملايو في بث الإسلام "وضخه" هنا. غير أن الهجرة الحديثة هي السبب؛ فقد أغرق طوفان الهجرة الهندية، ولكن الصينية بالدرجة الأولى، أغرق العنصر الملاوي المسلم في القرن الأخير. ورغم أن الهجرة الهندية أضافت إلى قوة الإسلام بعض الأعداد، فقد كان الحساب الختامي خاسرا بسبب الهجرة الصينية السائدة. وحيث تتبلور هذه الهجرة إلى الذروة في

سنغافورة، ينخفض الإسلام إلى أدناه، فلا يزيد عن ١٢% من المليونين ونيف التي تؤلف سكان الجزيرة. ويتركز الإسلام في الملايو، مع كثافة السكان العامة، على الساحل الغربي بصفة خاصة.

إندونيسيا هي ثاني أكبر دولة إسلامية في العالم، وقد سجلت في عام ١٩٦٥ من السكان ١٠٥ مليون نسمة، لا شك تعدت العشرين بعد المائة مليون الآن، الأغلبية الساحقة منها - ٨٠% - من المسلمين. أي أن إندونيسيا تضم سواء من السكان أو من المسلمين مثلما يضم العالم العربي بالتقريب. وتكاد جزيرة جاوة وحدها بتعدادها البالغ نحو ٦٥ - ٧٠ مليونا تكاد أن تضم من المسلمين على رقعتها التي لا تزيد عن ٥١ ألف ميل[٢] مثلما تضم إفريقيا العربية البالغة ٣,١ مليون ميل مربع مساحة! هذا وفي المستعمرات البريطانية السابقة في بورنيو - صباح وسرواك وبروني من اتحاد ماليزيا حاليا - نحوا من ٩٠٠ ألف مسلم، قل مليونا. وتحمل حركة التهجير المخططة التي تتبعها إندونيسيا إلى "الجزر الخارجية" المخلخلة السكان، تحمل معها انتشارا جغرافيا محققا للإسلام في الأرخبيل المترامي.

لا يبقى الآن في جولتنا إلا الفلبين - أرض الشمس المشرقة في العالم الإسلامي! - حيث مسلمو المورو Moros، كما سماهم المستعمرون الإسبان على نحو ما عرفوا المسلمين في إسبانيا والمغرب، والذين حاربوهم بعنف وقاوموهم كما فعلوا هناك أيضا. ويتراوح تقديرهم بشدة بين المليون (٩٠٠ ألف) وبين الأربعة ملايين! فهم إما جزء من عشرين من سكان الفلبين وإما خمسهم - بحسب المراجع.. وهم بعد هذا يتركزون أكثر ما يتركزون في جزيرتي مندناو وسولو، أي في الجنوب مما يشير إلى أن الإسلام هنا امتداد

لكتلته الأساسية في الأرخبيل الإندونيسي مثلما يشير إلى أن مصدره إنما هو عن طريق الجسر الجزري وليس من القارة مباشرة. وبالفعل فإن مسلمي الفلبين يتألفون جنسيا من عنصرين: الملايو المهاجرين الذين جلبوا الإسلام بعد القرن الحادي عشر، وقبائل التاجال الوطنية التي أسلمت على أيديهم في القرن الرابع عشر.

***

الفصل الخامس

صفحات من الأوراق الخاصة

الجغرافيا والجغرافيون

الجغرافيا والجغرافيون(أ)

العلم الحائر:

لم يعد أدنى شك أن الجغرافيا تزداد حيرتها في العالم كل يوم أكثر وأكثر، في عصر العلم والتكنولوجيا والمعلوماتية والليزر والأقمار الصناعية.. إلخ.

كل هذه تلقي على الجغرافي أعباء جديدة رهيبة، وهو الذي نا وركع تحت وطأة وثقل أعبائه السابقة! ما العمل؟ كيف ينهض؟ كيف يزحف؟ كيف يمشي؟ كيف يركض؟ كيف يقفز؟

لابد أن يخوض الجغرافي الإلمام بكل التكنيك العلمي الجديد، يأخذ عنه فكرة واضحة، لا ليتحول إلى متخصص فيه، بل مجرد متلصص عليه.. ولكن في نفس الوقت فإن هذا يؤكد أكثر من أي وقت مضى وللمرة الألف بعد المليون أن الجغرافيا فلسفة المكان، فلسفة الأرض، فلسفة العالم، فلسفة الكرة الأرضية لا أكثر ولا أقل – لاستحالة أن تكون غير ذلك. نحن ندعو إلى الحد الأقصى من العلم والعلمية في الجغرافيا لتواكب عصر العلم والتكنولوجيا الفائقة، وفي الوقت نفسه إلى قلب الجغرافيا وموطنه النهائي وهو فلسفة المكان – الحد الأقصى من العلمية مع الحد الأقصى من الفلسفية، وتحقيق ومواءمة هذه الثنائية هي جوهر "فن" الجغرافيا.

***

(أ) انظر د. جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصة، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٨ – ٨٥.

كل يوم يزداد العالم تقلصا وانكماشا بتقاربه وتلاصقه وتوحده – القرية الكوكبية أو الكوكب – القرية، ولكن حجمه وعبئه على الجغرافي يزداد فداحة وضخامة.

ميزة وقوة الجغرافيا، سر المهنة وسر القوة، هو أنها تعتمد على التقسيم المكاني، فالتقسيم المكاني هو "تصنيف في المكان" بلاطات وقوالب وألواح وشقافات (= أقاليم وأشباه أقاليم من مختلف الدرجات والمساحات) تقسم إليها الظاهرة المعطاة أو المدروسة والتي قد تكون عائمة هلامية سايحة فتصبح محددة، واضحة الحدود، واضحة في الذهن، أي تصبح علمية (+ فنية).

أي: قولبة الهلامي، بعد وبدل هلامية التكوين.

***

الجغرافيا = عملية + توزيع.

بعبارة جديدة: الجغرافيا = ميكانيزم + صورة.

الآن الجغرافيا هي التي تقدم الصورة للمتعلم والمثقف أكثر من الميكانيزم الذي هو ألصق بالعلوم الأولية من هنا كان للجغرافيا ميزة حاسمة على علوم كثيرة كالنبات والحيوان والجيولوجيا والميتورولوجيا فهي وحدها التي تقدمها للطالب الثانوي ثم للجامعي غير المتخصص. نحن أفضل موصل جيد للعلوم الأولية إلى غير المتخصص، سواء مبتدئ أو ناضج.

كذلك، لما كان الميكانيزم في العلوم الاجتماعية كالاجتماع والسياسة إلخ ثانوي الدور وأقرب إلى الحدس والعقل الفطري، فإن الجغرافيا تكاد تحتكر الصورة + الميكانيزم في حالتها، تعكس العلوم الطبيعية الذي يظل الميكانيزم فيها خطيرا جدا بالطبع وغاية في ذاته.

***

قد لا تكون الجغرافيا قمة العلوم، ولكنها بالتأكيد قمة الثقافة. الجغرافيا هي أعلى مراحل الثقافة، وهي علم الثقافة الأساسي بدونها أنت غير مثقف مهما فعلت، وبها أنت مثقف مهما قصرت.

لن تكتب في الثقافة العامة جغرافيا بحتة أو صرفة! كلا، ستكون ثقافة عامة مشبعة أو مشعشعة أو مدعمة بالجغرافيا، ترتكز على الجغرافيا ولكنها لا تركز عليها. الجغرافيا فيها أساسي ولكن ليس الصرح بالضرورة الجغرافيا فيه جزء لا كل, باختصار وعندئذ عليك أن تخضع الجغرافيا للثقافة بينما في العلم البحت تخضع الثقافة للجغرافيا.

كما أن الأسلوب الروائي الدميم ليس شرطا للكتابة العلمية، فإن الأسلوب الجميل ليس حكرا على الأدب والكتابة الأدبية، وليس كل كتابة جميلة الأسلوب أدبية أو من الأدب في شيء بالضرورة.

***

لا ينبغي للجغرافي أن يشعر بمركب نقص إزاء العلوم الأخرى التي يأخذ منها، ولكنه أيضا لا ينبغي أن يكون لنفسه مركب عظمة إزاءها فالتوازن النفسي مطلوب كالعلمي.

الجغرافيا هي التسمية المقترحة لـــ geohistoire على غرار الجغراسيا.

إذا كانت العلوم اثنتين: مفيدة ومنورة، فإن الجغرافيا إن تكن أكثر العلوم المنورة بلا نزاع، فإنها ليست بالضرورة أقل العلوم المفيدة إفادة. فهي قد لا تقل فائدة عن الاقتصاد، وبالتأكيد عن الاجتماع أو علم النفس التطبيقي إلخ.

وبالصفة الأولى، فإن الجغرافيا هي قمة علوم الثقافة وعلم الثقافة الأول مثلما سيدة العلوم الاجتماعية غير منازعة وبالصفة الثانية فإنها لا تقل مكانة وجدوى عن العلوم الطبيعية.

[الجدوى العلمية نقصد بها مدى فائدة أي علم للحياة العملية والإنتاج المادي].

***

الجغرافيا علم خالد من الأزل إلى الأبد وخالد لأنه حتمي لا مفر منه ولا بديل عنه.

أزاح الإعلام العلم عن الصدارة، وأصبح العلماء هم برولتارية العالم الجديد الذي خلقوه بعلمهم وتكنولوجيتهم.

***

أمريكا الشمالية من الناحية الجغرافية الضيقة وأقاليم هريرتسن تساوي أوراسيا (أوربا + آسيا) مضغوطة وعلى تصغير، ومع استبعاد قلب أوراسيا القاري جدا. وأقاليم شرق القارة في الحالتين واحدة، وكذلك أقاليم غرب القارات، بل وأيضا أقاليم وسط القارات وخطوط النص متقاربة، والاشتراك في الأقاليم الطبيعية واضح حتى الإقليم الصيني في فلوريدا وحولها، وإقليم المتوسط في كاليفورنيا. وكما تنتهي أوربا عند البحر المتوسط تنتهي أمريكا عند الكاريبي, ولكن يمكن اعتبار أن الهند الموسمية يقابلها مثلث المكسيك وإن بتخفيف نسبي، كما أن جزر الهند الغربية المدارية شبه الاستوائية تقابل جزر الهند الشرقية وإندونيسيا المدارية الاستوائية.

من ناحية أخرى، إفريقيا جنوب الصحراء تساوي وتناظر تماما أمريكا الجنوبية ابتداء من بنما. فالأقاليم الصينية مشتركة ومتناظرة وحتى الشكل المثلثي متقارب ورغم الكورديرا في أمريكا الجنوبية (كما في الشمالية) والتشابه واضح.

ترتب على هذا أننا لو حذفنا الصحراء الكبرى من إفريقيا ولحمناها

بأوروبا في كتلة واحدة، لأصبحت مشابهة ومناطقها تماما لكتلة الأمريكتين تقريبا لا سيما إذا حذفنا أمريكا الوسطى من الأخيرة أي أن:

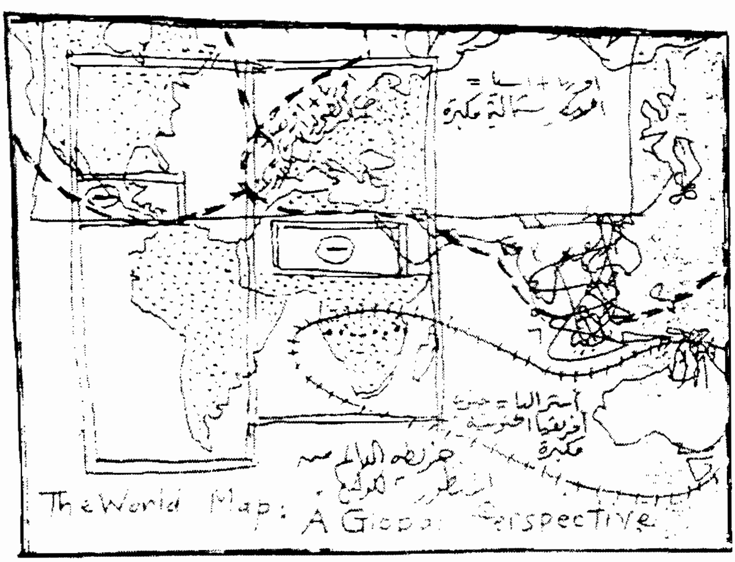
أوربا + إفريقيا (- الصحراء الكبرى) = الأمريكتين (- أمريكا الوسطى).

لا يبقى سوى استراليا خارج هذا المنظور الكوكبي لخريطة العالم. ولكنها أقرب شيء إلى جنوب أفريقيا حوالي مدار الجدي على تكبير (كلهاري هي صحراء استراليا مصغرة جدا) منها إلى أمريكا الجنوبية.

"خريطة العالم من منظور كوكبي".

The World Map: A Global Perspective.

***



(شكل ٣) خريطة العالم من منظور كوكبي

الأطلس هو كتاب الجغرافيا الأول (والأخير؟) فهو منبع ومصب الجغرافيا جميعا.

من هنا كانت الخريطة هي شفرة الجغرافيا ومفرداتها إنها لغة الجغرافيا بامتياز، الخريطة هي اللغة الجغرافية الأساسية. وهي لغة عالمية غير مكتوبة وإنما مرسومة أو قل إن أبجديتها رسوم وإذا كانت الخريطة هي كلمة الجغرافيا، فإن الأطلس قاموسها.

والجغرافيا هي علم المكان Place Science

نقطة ضعف الجغرافيا القاتلة هي أنها يمكن الحياة بدونها. لن تتوقف الحياة أو تموت البشرية أو ينتهي التاريخ إذا لم تعرف جغرافيا!

هذا هو المقتل وهو جزء من مقتل الثقافة عامة فأنت لن تقوم القيامة إذا لم تكن مثقفا! بل ربما أرجح كنت أسعد وأنجح. [وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم!].

ذو الجغرافيا يشقى في النعيم بعلمه، إلخ إلخ.

الجغرافيا هي كل ما ترى العين خارج البيت أو الجدران out of doors كل ما نراه خارج البيت أي في الطبيعة أو في البيئة أو في الشارع (أي خارج البيت) هو جغرافيا (بحتة!) فكل إنسان، جغرافي أو غير جغرافي، يرى الجغرافيا حيثما كان وأينما تحرك، بل إنه إنما يتحرك "فيها" ولا مهرب له منها البتة "حيثما تكونوا تدرككم الجغرافيا حتى ولو لم تدركوها أنتم"! وكل إنسان على الأرض له خبرة ومعرفة بالجغرافيا سواء أدرك هذا أم لم يدرك. فالجغرافيا علم بصري ابتداء إن لم نقل أساسا، والأعمى وحده للأسف هو الذي يقع خارج الجغرافيا، لا يراها ولا يعرفها أي يدركها وإن هي أدركته طبعا وحتما، هذا يعيد تأكيد أهمية مدرسة اللاندسكيب في الجغرافيا. إنها ليست نافلة أو بدعة، بل ضرورة وجود.

ليس هناك إقليم واحد في المنطقة؛ هناك أقاليم عديدة في الإقليم الواحد نفسه، عدة أقاليم بعدد فصول السنة أو تغيرات الطقس الدورية.

***

ليس المطلوب في الجغرافيا الآن اللوغاريتمات والمعادلات إلخ، ليس المطلوب العلمية بهذا المعنى الدقيق الصارم، إنما المطلوب "الجمالية" الجغرافيا الجميلة، الجغرافيا كعلم جميل وهذا "فن".

وهذا يتسق مع مطلبنا من إلغاء العمل الميداني بمعناه الحالي، وتحويله وقصره على الرؤية اللاندسكابية والفكر المكاني... إلخ.

لماذا؟ لسببين قاتلين: أولا، استحالة وجود؛ أي: تربية الجغرافي الذي يجيد تماما كل الطرق والوسائل المعملية لكل العلوم الطبيعية والاجتماعية، كالإنثروبولوجيا والتشريح، والجيولوجيا وتحليل الصخور والتربة وقياس المناخ الحديث (كله فضائيات الآن!).

حتى التخصص في فرع واحد كالجيولوجيا أو الاقتصاد يستدعي معرفة كاملة بكل تكنيك الجيولوجيا والعلوم الطبيعية، أي تكرر طالب الجيولوجيا أو كلية العلوم بالكامل فحتى هذا مستحيل، ولو فعلته لخرجت من الجغرافيا ولم تعد جغرافيا.

ثانيا – لو فرضنا جدلا الإحاطة الكاملة بتكنيك كل العلوم المعملية التي في الدنيا، فماذا يجدي هذا الجغرافيا نفسها؟ لن نضيف إليها هي جديدا!.

لهذا نعود فنؤكد أن حقيقة الحقائق وقانون الجغرافيا الذي يعلو كل حقيقة وقانون هو أن الجغرافيا هي الجغرفة! عملية تحويل ما ليس جغرافيا إلا ما هو جغرافي.

كل جغرافيا أصولية هي "تكثيف استراتيجي" للفهم الأول الموازي أو المقابل: الجغرافيا التاريخية تكثيف استراتيجي للتاريخ.

الجغرافيا السياسية تكثيف استراتيجي للسياسة.

الجغرافيا الاجتماعية تكثيف استراتيجي لعلم الاجتماع.

وهكذا إلى آخره.

لماذا تكثيف، ولماذا استراتيجي؟

التكثيف، لأنه يأخذ ذلك العلم الأول فيعتصره اعتصارا ويختزله اختزالا ويكثفه إلى حد التضاغط الأقصى، حتى لتصبح الجغرافيا الأصولية بمثابة "ما قل ودل" من العلم الأول الذي أطال فأقل!.

الاستراتيجي، لأن الجغرافيا تنتخب وتلتقط في تكثيفها كل ما هو جوهري وعميق ودال وفاعل في العالم الأول، الحدود دون تواتر والكليات دون الجزئيات، والعموميات دون التفاصيل، اللب دون القشر العمق دون السطح.. إلخ.

إن الجغرافيا علم استراتيجي حيث العلوم الأولية علوم تكتيكية كما قد تقول.

***

تعريف الجغرافيا هو جوهر فلسفة الجغرافيا، بغير التعريف الجامع المانع الواضح القاطع تستحيل الجغرافيا لماذا؟ لأنها علم انتقائي، انتخابي، الحقائق والمعلومات التي تدخله هي اختيار واستبعاد، فعلى أي أساس نختار ونستبعد، إلا على أساس تعريف منهجي حاسم؟

لذا فإن فلسفة الجغرافيا هي أساس علم الجغرافيا. لا جغرافية بلا فلسفة المادة، فلسفة الجغرافيا.

لا جغرافي بغير فلسفة الجغرافيا.

ولا جغرافي ممتاز بغير الجغرافيا الفلسفية.

الجغرافي الكامل:

أنت إما جغرافي مؤبد، جغرافي مدى الحياة، من المهد إلى اللحد، وما أنت إلا جغرافي على الإطلاق، لا وسط بين الجغرافي المطلق، واللاجغرافي على الإطلاق.

فالجغرافيا لا تقبل شريكا قط، لا في العلم ولا في الحياة. أنت محكوم عليك بالجغرافيا إلى الأبد، وإلا خرجت من حوزة الجغرافيا.

بمعنى لن تكون شيئا مذكورا في الجغرافيا، إن لم تتفرغ لها تماما العمر كله. وليس في الجغرافيا شيء كفترة انقطاع تتركها إلى حرفة أو مهنة أخرى ثم تعود إليها، كلا، إنها نقطة اللاعودة، وليس هناك Making a come backe.

الجغرافيا علم استقراء بلا قياس. كل بقعة عليك أن تعرفها بالذات أو لن تعرفها قط لا مكان يمكن أن يكون بديلا عن مكان آخر ولا إقليم عن آخر – فمعرفتك بكاليفورنيا جدا لا تغنيك عن معرفة حوض البحر المتوسط، ولا هذا عن حوض النيل.

برودل: Geohistory/ geohistoize- geo psychology = نظرية الأفرقة والطوالع القومية إلخ. Geososiologye= الجغرافيا الاجتماعية.

وتعريف الجغرافيا بأنها "علم" هو تعريف ناقص، "والجغرافيا العلمية" لا تجعل من الجغرافيا إلا "سندريللا العلوم" كما قيل. ما لم تكن الجغرافيا علما +

فنا + فلسفة، فإنها لا يمكن أن تضيف جديدا ولا أن تؤمن استقلالها وسيادتها العلمية.

والجغرافي بهذا أيضا هو "حاوي العلوم" ليس فقط بمعنى "خزنة أو حافظة" العلوم جميعا وعموما، ولكن أيضا وبلا خجل بمعنى الحاوي الساحر أو الشاطر الذي يتلاعب بالأوراق فيخرج منها ما ليس فيها. وإذا كان فيتمان وغيره يدعون علنا إلى السرقة (الشريفة) من العلوم الأخرى، فإن الجغرافي بهذا ليس فقط "اللص الشريف" ولكن أيضا "الحاوي الشاطر" والساحر الذكي..

الجغرافي الكبير المفكر المخطط الموجه، لا ينبغي أن يتعالى على أو يزدري مدرس الجغرافيا البسيط ثانوي أو أقل – لماذا؟ أولا لأنه تلميذه أصلا، ثانيا لأنه وحده هو الأداة التنفيذية، الجهاز التنفيذي أي أداته التنفيذية المباشرة والمتاحة.

ومع تهمة الموسوعية، سواء صح أو لم يصح أن الجغرافي أغزر العلماء كتابة، فالحقيقة الأهم والأقطع هو أنه أكثر العلماء قراءة. الجغرافي أكبر قارئ في الدنيا. لماذا؟ لأنه لكي يكتب صفحة يقرأ ١٠ صفحات حتما وبالضرورة؛ إنها قمة التكليف، لأنها قمة التكثيف.

وحتى الخريطة الجيولوجية، ينبغي على الجغرافي أن يجغرفها تماما، ولا يأخذها كما هي من صاحبها الجيولوجي، لأنها تخدم أغراضه المختلفة قليلا أو كثيرا عن الجغرافي. مثلا – خريطة مصر الجيولوجية، التي نقلها الجميع عن بول خبط لزق.

***

لا يكون الجغرافي جغرافيا إلا إذا كان فيلسوفا – نظرية.

لا يكون الجغرافيا جغرافيا إلا إذا كان حمار شغل – نظرية أخرى.

النظريتان ليستا متعارضتين، بل متكاملتان.

بالمثل النظرتان: نظرة الطائر المحلق.

نظرة الدودة المحدقة.

التلسكوب + الميكروسكوب.

الماكرو + الميكرو.. إلخ.

***

لا علم بلا جامعة! محال تماما أن يعمل عالم ممتاز بالعلم خارج جامعة (أو مؤسسة شبه جامعية كأكاديمية أو مركز بحوث إلخ).

المهم، لابد للعلم من جامعة ما.

ولكن، للأسف، بمجرد أن يدخل العلم الجامعة يتحول إلى وظيفة، والعلم إلى موظف. أستاذ الجامعة ليس إلا موظف علم!

وبهذا يتحول العلم فجأة إلى تقليد وتقاليد – إلى علم تقليدي.

فالجغرافيا الجامعية الآن جغرافيا تقليدية صرف، جامدة، محنطة شكلية، متخلفة، "وشغل حمير" أساسا.

المثقف:

هو الإنسان الذي يتجاوز دائرة ذاته، ليصل إلى المجتمع الأكبر كله، هو الإنسان القادر على أن يجعل مشاكل الآخرين هموما شخصية له. هو ضمير عصره سابق لعصره في إدراك الخطر المستقبلي والحلم بالمستقبل، هو برج مراقبة للعالم من حوله، يرصد يحلل، يتوقع يتنبأ، يحذر، يخطط، لا يضيع في

التفاصيل وإن تابعها بكل تفصيل، يحول الأشجار إلى نهاية، والتكتيك إلى استراتيجية إنه مفكر استراتيجي كلي شمولي نبؤي.. إلخ.

حسنا، إذا كان هذا هو تعريف المثقف الشائع والأكثر شيوعا وقبولا، فإن لم يكن هو تعريف الجغرافي فماذا يكون؟

إن المثقف الجغرافي هو سيد المثقفين.

وسواء كانت الثقافة هي الأصالة أو المعاصرة والثقافة الجغرافية والجغرافيا الثقافية تضم الاثنين جميعا. فهناك التراث الجغرافي العربي الهائل ولا سدنة ولا خدم ولا حارس أو دارس إلا الجغرافي، ثم هناك جغرافية اليوم وجغرافية الساعة وهي قمة المعاصرة.

كلا، ليست قضية الجغرافيا أن تكون أو لا تكون إنما هي أن تكون فاعلة أو لا تكون، فاعلة أو خاملة، مؤثرة هامة أو غير ذلك.

وليست الجغرافيا "كشكول" العلوم، ولا الجغرافي "مسجل" العلوم، ليست الجغرافيا "سجل علوم" ولا الجغرافي هو "مسجل عموم العلوم"، ليس مسجل توثيقي أو موثق علوم أو أرشيفي بدرجة عالم أو أستاذ كرسي الأرشيف العلمي العام.

الجغرافي الحق الذي جاء ليبقى وخلق ليخلق هو الذي يولد "حيوانا جغرافيا، ويعيش "عبدا جغرافيا"، ويموت "قتيل جغرافيا"!.

مأساة الجغرافيا في الحياة: العمليون يرونها عبئا لا داعي له، والنظريون يرونها عالة عليهم بلا داع! ياالضيعة الجغرافيا بين الرجل العملي والأكاديمي النظري!!

نعم، العالم يصبح قرية كبيرة أو صغيرة – ولكن حذار من هيستريا العالمية (لعبة أمريكا والغرب ضد الآخرين خصوصا نحن) – المهم في

الجغرافيا: لن يصبح العالم؛ كذلك "إقليما" جغرافيا واحدا! قط، ستظل الجغرافيا هي الجغرافيا والعالم هو العالم – وما عدا ذلك فسفسطة وفلسفة مفلسة.

الوحدة الجغرافية تقول للعرب.

اعتصموا بحبل الجغرافيا جميعا ولا تفرقوا [كذا].

وظيفة أو وظائف الجغرافيا المفتوحة هي ثلاث: التعليم، التخطيط، الثقافة.

الأول يبيع العلم وإعادة توزيع وتوصيل، أي أنك تتعلم الجغرافيا من غيرك لتعلمها لغيرك – فلا جديد – وهذا هو السائد.

الجغرافيا هو علم اكتساب وتحصيل، وليس علم حدس أو تجريب. فأنت إن لم تعرف نهر الكولورادو فلن تعرفه بالحدس أي التهويم وفي حين تستطيع أن تعرف النفس المريضة أو الزكية أو الفلسفة من خبرة الحياة والآخرين فحسب – تماما كما سيعرفها علم النفس ولكن بدقة أكثر فقط.

الميثودولوجيا(١) والمادة، لابد منها في كل علم. ولكن لا تصل الميثودولوجيا إلى قمة أهميتها وقيمتها في أي علم كما تصل في الجغرافيا.

بدون الميثودولوجي، الجغرافيا تافهة ولا شيء وصاحبها تافه ولا شيء.

أخطر من الفكر الجغرافي، الفعل الجغرافي! Gog. et actin ميشيل فيليبوتو.

ومن تعاسة الجغرافي وقدر الجغرافيا أنها لا ترضى عن أحد من الأخصائيين ولكن أحدا منهم لا يرضى عنها بدورها! لا يعجبها أحد، ولكنها لا تعجب أحدا!

ومن ضيعة الجغرافيا: الفلاسفة ينظرون إليها كعلم، والعلماء ينظرون إليها كفن، والفنانون ينظرون إليها كفلسفة!!

---

(١) معربة وهي في الإنجليزية Methodalgy أي المنهجية أو علم المنهج (الناشر).

كل العلوم الاجتماعية، وخاصة الجغرافيا (والتاريخ) ما لم تكن مطعمة، بل مشبعة، بل حبلى، بالفلسفة أي بالفكر، فإنها تفقد الكثير جدا من قيمتها وجانبيتها، من جدواها ومن بريقها.

***

مفيد جدا أن يوجد دائما الجغرافي المحترف التقليدي، المدرسي (الجامعي) بكل عيوبه وميزاته، إلى جانب الجغرافي غير التقليدي، الثوري، المجدد، الهادم، هذا مصل مضاد لذاك، والعكس. المطلوب دائما ثورة جغرافية، وهذا يعني توا ثورة على الجغرافي وفي الجغرافيا من أجل "جغرافيا ثورية".

ويبدو أن من الممكن نظريا وواقعا أن الجغرافيا التاريخ والدراسات التاريخية تتقابل عند نقطة معينة يتوحدون فيها في دائرة واحدة.

أليس مما له مغزاه، وأحيانا يدعو إلى السخرية أن بعض أعمال الجغرافيين البشرية الإقليمية تتهم بأنها تاريخ، بينما أن بعض أعمال المؤرخين توصف أو توصم بأنها جغرافيا وجغرافية (مثل بروديل)؟!

أليس هذا دليلا على تداخل وتلاقي العلمين عند نقطة معينة. الواحد يبدأ علم مكان ثم يتوغل في الزمان ويتغلغل، والآخر يبدأ علم زمان ثم يخوض في المكان وينغرس، حتى يصبح الاثنان وجها لوجه على أرض واحدة في لحظة ما؟

فعلاً، المكان هو العنصر الأساسي الوحيد الذي يجمع الأشياء والظاهرات المختلفة جدا ويؤلف بينها وقد يوحدها. المكان، يعني الجغرافيا.

***

كما يميزون في دراسة الفلسفة بين فرعين تاريخ الفلسفة، والنظريات الفلسفية، رغم التداخل الأساسي الأصلي بينهما، فكذلك في الجغرافيا: هناك فرق ويجب أن تكون هناك تفرقة واضحة منهجيا بين تاريخ الجغرافيا، وبين قضايا ومشاكل ونظريات الفكر الجغرافي والمنهج الجغرافي.

قد يعرف الجغرافيون ما يفعلون، ما هم فاعلون، (وإن لم يكن كلهم بالتأكيد – للأسف الشديد!) ولكن اللافت أن كثيرا من غير الجغرافيين من العلماء المختصين في فروع العلوم الاجتماعية وحتى الطبيعية كثيرا ما يتساءلون في صمت وفي قرارة أنفسهم عما يفعل بالضبط هؤلاء الجغرافيون! هم يرونهم على أفضل الأحوال مخلوقات علمية غريبة مثيرة للشك والريبة أكبر منها للاهتمام والأخذ بجدية.

هذا أمر معروف ووضع لا يجوز إنكاره أو تجاهله. وعلى الجغرافيا أن تعترف به وبمشروعيته، ثم عليها بالمقابل أن تتصدى له بالشرح والإقناع وإثبات الذات.

وربما لم تضف الجغرافيا إلى المعرفة الإنسانية حرفا واحدا جيدا تماما من عندها، ولكنها مع ذلك تقدم أفضل وخير وعاء وشكل لتقديم المعرفة الإنسانية للشخص العادي والمواطن العالمي ليس هناك غيرها ولا أفضل منها وعاء لتقديم خلاصة وجماع ما توصلت إليه سائر العلوم من طبيعية واجتماعية للمتعلم العادي والمثقف العام. مثلا لن يصبح كل متعلم في الدنيا متخصصا في النبات أو الحيوان، فإذا لم يعرف شيئا عن الغابة الصنوبرية أو غابة المطر أو الاستبس أو الكنجارو أو الرنة.. إلخ في دراسته الجامعية تحت بند الجغرافيا، فأين ومتى سيعرفها؟ قط لن يعرفها، أي لن يعرف العالم ولا أي شيء عنه.

وعلى هذا فقس مع الجيولوجيا، مع الاقتصاد، مع السياسة، الاجتماع، التاريخ.. إلخ.

إذن، الجغرافيا هي خير موصل جيد للمعرفة الإنسانية، أجود موصل، بل الأوحد، وهذا فضل، لو تعلمون، عظيم.

ولكن هل هذا هو كل فضل الجغرافيا؟

كلا بيقين، فهي خير موصل جيد للمعرفة الإنسانية كحد أدنى، أي عند حدها الأدنى.

أما عند حدها الأعلى، فالجغرافيا مؤصّل جيد للمعرفة الإنسانية، ولكن بمعنى خاص وهذه قصة أخرى.

ما الدنيا إلا مسرح جغرافي كبير!!

على سالم المؤلف المسرحي يقول (!):

"ثبت أن الجغرافيا أقوى من التاريخ، وهي التي صنعت الماضي وستتحكم في المستقبل". ولا تعليق!

النزاعات الأكاديمية والغيرة المهنية من المؤرخين والجغرافيين موجودة دائما (خاصة في فرنسا لأن العلمين كانا يدرسان معا دائما). وبعض المؤرخين لا يخفي ازدراءه العلني للجغرافيا. لا يهم. المهم الآتي:

الجغرافيا أقوى من التاريخ – لا شك.

لماذا؟ لأن الجغرافيا تحكم وتصنع التاريخ.

ولكن التاريخ لا يحكم الجغرافيا ولا يصنعها!

وكعلم ربط بين العلوم، الجغرافيا فعلا علم مفصلي ليس فقط بموقعها وسط العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكن أيضا بربطها بين الظاهرات المختلفة في المكان أفقيا "الإقليم" ورأسيا "الإيكولوجي" مفصلي أفقيا ورأسيا.

مشكلة الجغرافيا هي مشكلة إنسانيتها.. هل هي "إنسانية" هل هي ممكنة إنسانيا.

Humanly Playsicaly

والجغرافيون بالضرورة تلاميذ كل المتخصصين الآخرين ابتداء من الجيولوجيا حتى التاريخ. ولكن ماذا بعد هذه التلمذة أليست إلا "الأستذة" فبعد أن يأخذ الجغرافي عنهم، يصبح في النهاية قائدا وأستاذا لهم.

الأدق والأصح، مع ذلك أن يقال: لا يبدأ الجغرافي وهو بالضبط تلميذ للإخصائي، كما لا ينتهي وهو أستاذ له تماما. وضع خاص في الحالتين.

لا ثقافة بلا جغرافيا.	"الجغرافيا والحياة".
لا سياسة بلا جغرافيا.	جغرافية الحياة.
لا عمران بلا جغرافيا.	الجغرافية الحية.
لا اقتصاد بلا جغرافيا.	

***

حتمية الجغرافيا: علم لابد منه, هذا هو الجغرافيا, مهما حاولت فلن تفلت من الجغرافيا، ولن تبيد الجغرافيا، إنها ضرورة علم حتمية بحتة. هذه الحتمية الجغرافية هي طبعا غير الحتم الجغرافي المعهود إياه (والمفترى عليه نسبيا أو نوعا ما) فهي حتمية حميدة.

هل الجغرافيا كشكول العلوم (كشكول الجغرافيا)، بستان العلم (بستان للجغرافيا!).

الجغرافيا في عالم متغير:

هذه إحدى أهم مشكلات الجغرافيا المعاصرة وعليها أن تتصدى لها، وتحلها لكي تعيش "الجغرافيا أو الموت" أم الموت للجغرافيا "تسقط الجغرافيا!" – "عاشت الجغرافيا"!

***

إن الجغرافيا حائرة تدور حول نفسها، تبحث عن دور جديد أو قديم محدد، عن مكان لها تحت الشمس، شمس العلم والعالم الجديد، عن توجه وتوجيه جديد مفيد.

واتجاه الجغرافيا إلى الثقافة العامة مطلب حيوي، مسألة حياة أو موت ولكن هذا وإن كان يعني تبسيط العلم والعلوم، والشعبية Vulgarisation فإن الأمر ليس بهذه البساطة أو السهولة.

التبسيط لا يعني التسطيح فضلا عن التفاهة.

التبسيط ليس سهلا، ولكنه ليس بهذه السهولة أو البساطة.

ولكن الخطر الأكبر الذي يهدد التوجه الثقافي للجغرافيا هو أن تسقط أداة ولوبي للسلطة والحكم كالصحافة – النزاهة العلمية والاستقلال الفكري شرط الثقافة الجغرافية مثلها هي شرط العلم الجغرافي والجغرافيا الأكاديمية.

الجغرافيا أساسا = عملية + توزيع.

Distribuation + process.

شيء غريب فعلا وحقا. موقع الجغرافيا بين العلوم يكاد يشبه موقع مصر بين البلاد!

فهي علم مفصلي يتوسط العلوم، كما أن مصر موقع مركزي مفصلي وسط العالم. الجغرافيا تأخذ من كل العلوم فتصطنع منها عصيرا وكائنا خاصا ولهذا السبب، وبصرف النظر عن التطور التاريخي، كانت الجغرافيا تالية ولاحقة للعلوم كعلم، سابقة لها كتعليم بمعنى أن الجغرافيا تبدأ كعلم بعد وجود العلوم الأولية الأخرى، وبعد أن تتم وتوجد، تصبح هي المدخل الطبيعي للتعليم، ثم تليها العلوم الأولية.

هل الجغرافي الجيد هو الملك ميداس أم نصف إله؟ هل الجغرافيا والجغرافي هي "نمل العلوم" أم "نحل العلوم"؟ هذا يسرق وينقل الطعام ويستهلكه خلسة من تحت أقدام الناس، وهذا يعمل بنشاط مذهل متحركا آلاف المسافات ليجمع الرحيق ويقدم للإنسان؟

هل هو وحي – هما – دودة قطن" أم "دودة قز"؟ هذا مدمر وهذا معمر؟

ولماذا؟ حتى المؤرخون أصبح بعضهم ينظر إلينا باستخفاف واستغراب وتأفف! حتى أنت يا بروتس!

حسنا، قد لا يليق أن نقول إن الجغرافيا تقف على كتفي العلوم الأخرى، لأنها في النهاية تعيش عليها وتأخذ منها، لكن بالمقابل لا يصح أن يقال إن الجغرافيا تقع تحت أقدام العلوم الأخرى.

إنها ليست سيدة العلوم (بالتأكيد) لكنها ليست خادمتها كذلك، ولا سندريلا ما أكثر. فما هي وما موقعها بالضبط؟ فكر!

***

لاحظ أن الصدفة التاريخية هي المقابل والنقيض للحتمية التاريخية.

بالمثل: الحتم الجغرافي × الصدفة الجغرافية.

لا يتحول التاريخ إلى علم إلا بتخصيصه بالجغرافيا وبغير ذلك يظل كائنا عقيما.

المدارس الجغرافية:

هي شبه حقيقية، شبه تاريخية، شبه جغرافية.

السؤال المحير والمحرج ولكن المحقق أو المحك في الجغرافيا هو: هل هذا جغرافيا؟ هل هذه جغرافيا؟ هل هذا جغرافي؟

السؤال مشروع ووارد دائما. والجواب الصح هو هل هذا إقليمي أم لا؟ إن كان إقليميا، فهو جغرافيا، وإلا فلا.

والإقليم مركب لا عنصر.

هناك الإقليم الذي يعتمد على أرض وأمد محدد كالتربة أو المناخ أو السكان.. إلخ هذا الإقليم إقليم عنصر، أو إقليمي أصول، نسبة إلى الجغرافيا الأصولية.

وهناك الإقليم الشامل بالمعنى الكامل أي الذي يضم كل عناصر الجغرافيا الأصولية. هذا هو الإقليم الجغرافي الحق، لنقل "الإقليم الإقليمي" (على وزن النواة النووية – للتأكيد) أو الإقليم الجغرافي.

أو يمكن أن يميز بين الاثنين فنقول الإقليم التحليلي analytical والإقليم التركيبي synthetic والجغرافيا أساسا علم تركيبي أو تخليقي Synthis.

المدارس الجغرافية إذن مدارس وطنية أو قومية وهي بهذا أقرب شيء إلى فكرة "الطوابع القومية" التي هي نسبية جدا جزئية أساسا، وربما سطحية نوعا.

إننا لا نرفض فكرة "المدارس" كلية ومن حيث المبدأ، ولكن نقبلها بتحفظات شديدة وتحديدات صارمة كشيء أكثر من لا شيء ولكن ليس هو كل شيء.

"الجغرافي الكامل" بمعنى الشامل الذي يتخصص ويتبحر في كل مجالات الجغرافيا وفروعها ودوائرها هو فكرة تجريدية بل خزائنه تماما. استحالة مطلقة. هناك نعم، الجغرافيا الكاملة لكن ليس هناك الجغرافي الكامل "الجغرافيا الكاملة" هي مجموع عشرات أو مئات من "الجغرافيين الجزئيين".

سواء لحسن الحظ أو لسوئه الفكر الجغرافي كان دائما وفي كل مراحله مرتبطا بمراحل الفكر العلمي الفلسفي والحياتي العام ومتأثرا به – أيام التطورية تأثر بها، مثلا راتزل والدولة وأيام البيئة والإيكولوجيا تأثر وكان الحكم الجغرافي أيام الماركسية تأثر وكان التخطيط والإقليمية والآن البيئة والتلوث إلخ.

لا جديد، بالضبط تحت شمس الجغرافيا كل القضايا الرئيسية والمشكلات والأساسية والمحاور المحورية والأعمدة الفقرية والمجالات العريضة كل هذا له جذور وأصول قديمة بالغة القدم في الجغرافيا، وعولجت ونوقشت منذ وقت مبكر جدا في بداية العلم ثم تكررت في كل مراحله، لكنها بالطبع تتطور وتتجدد، عمقا وعرضا واتساعا وأصالة وإضافة كالمد والجزر، كالتهبيط والترقيع، كالتسريع والإبطاء، كالبندول وحركته المستمرة المزمنة. إذن جنين وجرثومة الجغرافيا كلها قديمة، مراحل جنينية وجراثيم يعني.

مسألة وجود "مدارس" في الجغرافيا، نقطة خطيرة جدا تستحق التعمق الجغرافيا علم أساسي لا فن أو قبل أن تكون فنا. موضوعية لا شخصية بالطبع معنى المدارس اتجاهات خاصة واهتمامات معينة وتكوين أو تلوين فكري متميز.

ولكن من ناحية أخرى، كل الاهتمامات الأساسية والخطوط العريضة مشتركة بين جميع "المدارس" بالضرورة. والمسألة فروق فردية في الدرجة لا في النوع، في التركيز لا في التخصيص.

معقول أن توجد بين جغرافي البلد الواحد، بسبب وحدة اللغة ولتركز القراءة في إنتاجها، قاسم مشترك ما (أصغر) بين أفرادها، يخلق نوعا من الجو المشترك أو الطقس أو المناخ الاهتمامي والمعلوماتي.. إلخ.

ولكن دون أن يفصلهم ذلك عن العالم الخارجي "والمدارس" الأخرى.

***

الجغرافي أحد اثنين: إما فيلسوف جغرافيا، وإما حمار جغرافيا.

بالمثل المؤرخ، إما فيلسوف تاريخ أو حمار تاريخ.

فعلا، فالجغرافيا في جوهرها هي "فكر في المكان".

المعلومة والفكرة (أو الحقيقة والرأي) هما قطبا المادة العلمية – خاصة في الجغرافيا من المعلومة نستشرف ونستنبط فكرة جديدة لا تلبث بعد أن تستقر أن تصبح بدورها معلومة جديدة. بهذا يتم تراكم المادة، وتتناسل المعلومات والأفكار على التعاقب والتبادل.

***

يجب على الجغرافي أن يضع نفسه داخل وخارج الإقليم في آن واحد: داخله لكي يستنبطه ويسبر أعماقه ودخائله، وخارجه لكي يراه رؤية كلية شاملة وكذلك نظرة موضوعية بحتة مجردة.

***

للأسف كثير من الجغرافيا الجامعية هي مجرد "جغرافية أطفال" فحذار من جغرافية الأطفال؟.

***

الفكر في المكان – في القصص والتطبيق يصبح "الفكر في الطبيعة وعلى الطبيعة" في المكتب والمكتبة يصبح هو "الفكر في الخريطة وعلى الخريطة".

من هو المفكر، وما الفكر؟ كثيرون يوصفون أو يعدون من المفكرين، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة، ولا حتى أنصاف مفكرين.

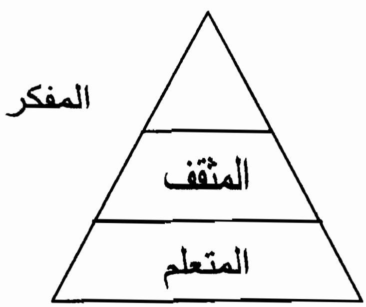
المفكرون الحقيقيون قلة وكل مفكر مثقف، ولكن ليس كل مثقف مفكرا، تماما كما أن كل مثقف متعلم ولكن ليس كل متعلم مثقفا.

الواقع أن هناك هرما من ثلاث طبقات:

القاعدة العريضة جدا: المتعلمون

الطبقة الوسطى القليلة: المثقفون.

القمة العليا الضيقة جدا: المفكرون.



فما هو المفكر ومن هم المفكرون؟

الفكر مركب من ٣ عناصر:

العلم – الفلسفة – الفن, وكل عنصرين منها وحدهما لا يصنعان مفكرا ولا فكرا.

المعادلة هي: الفكر = العلم × الفلسفة × الفن (بالضرب لا بالجمع، كناية عن التفاعل العضوي الخلاق بين أطراف الثلاثية).

وهذا بالضبط هو الفكر الجغرافي فالجغرافيا فكر أولا وأخيرا. والفكر الجغرافي، كالفكر عموما ولكن أشد وأكثر، هو تفاعل العلم بالفلسفة بالفن.

ومن هنا يأتي التجديد العلمي والإضافة.

والأفكار في الجغرافيا هي الإطار الوحيد والضروري لصب وترتيب المعلومات, وهذا هو الحل الوحيد الحقيقي لمشكلة الجغرافيا الرهيبة، وهي

طوفان الحقائق والمعلومات اللانهائي القاتل مع قلة الأفكار والأنماط الكبرى الرئيسية التي نرصها وننضدها فيها. وبغير هذا تصبح الجغرافيا علما رهيب الحجم، فاقد الهدف – غير هادف. الأفكار هو موجه ومجدد هدف الجغرافيا – البوصلة الجغرافية **الأفكار: بوصلة الجغرافيا, والمعلومات: جسمها وسفينتها. الأفكار: قاطرة الجغرافيا، والمعلومات: قطارها أو مقطورتها!.**

***

التكنولوجيا والعلم المعقد جدا تغزو الجغرافيا كسائر العلوم. وستجعلها أكثر من أي وقت مضى علما مستحيلا، أما عامل الغيط فسيصبح في استحالة رؤية الوجه الآخر من القمر.

ولقد أتت ساعة الحقيقة على الجغرافيا بكل شجاعة وأمانة أن تلقى بخرافة أو مسخ العمل الميداني في البحر ووراء ظهرها وإلى الأبد إنه خداع للناس ولكن الآن في عصر التكنولوجيا والكمبيوتر والليزر والأقمار الصناعية وخرائط الفضاء.. أصبح خداعا قاتلا للنفس.

إنها الجغرافيا لا تنتحر برصاصة العمل الميداني الفاسدة (المغشوشة)!

***

صفات مختلفة للجغرافيا: العلم المستحيل – المجنون – القاتل – القاصم.

بهذا الحجم الرهيب والمجال المخيف، لا يمكن إلا أن يكون نصف الجغرافيا على الأقل أخطاء فاحشة ومروعة!

– يموت الجغرافي الجيد وفي نفسه شيء منها.

– يعيش الجغرافي الرديء وليس في نفسه شيء منها!

***

ولأن الجغرافيا تقف على أكتاف العلوم الأولية كلها، على كتفي العلوم الطبيعية من ناحية والعلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى، فإنها يمكن أن تكون أكثر منها قامة وأن تتفوق عليها أكاديميا وفكريا ونظريا والواقع أن الجغرافيا، كما تمثل وحدة الدنيا والعالم كأرض، تمثل أيضا وتماما وحدة المعرفة الإنسانية والعلم كله. هي وحدها وحدة العلم والمعرفة – وكل ما عداها اجتزاء جزئي وفصوص. الجغرافيا يمكن أن تكون قمة العلوم جميعا، قمة المعرفة الإنسانية جمعاء.

هناك مشكلة أصبح من الضروري حسمها، بعيدا عن الجغرافيين من "الباب الخلفي أو الجانبي" أي الذين بدأوا علماء متخصصين في علوم معينة، ثم تحولوا منها إلى الجغرافيا بصورة "رسمية" أي احترفوا الجغرافيا من أول وجديد، فأصبحوا جغرافيين محترفين (محترمين) بكل معنى الكلمة.. وطبعا لا يمكن أن يسموا بعد ذلك جغرافيين "هواة".

هناك ناس يكتبون جغرافيا دون أن يقصدوا أو يدروا ويدركوا، على هامش كتاباتهم وتخصصاتهم أو تضاعيفها. إنهم ليسوا "هواة جغرافيين" لأن الهاوي عاقد قاصد وهم ليسوا عاقدين قاصدين, في نفس الوقت لا يمكن نفيهم تماما من الحوزة الجغرافية، ولا ضمهم إليها طبعا. إنهم "جغرافيون وما هم بجغرافيين".

***

ما ومن الأسبق: الجغرافي أم الكارتوجرافي؟

أولا، وبلا جدال، الجغرافيا شيء مختلف تماما عن الكارتوجرافيا، رغم العلاقة الحميمة جدا والخاصة جدا.

في البدء تأتي الخريطة لكن من الذي صنع الخريطة؟ الكارتوجرافي يقينا. ثم يأتي الجغرافي عند ذلك ليجد الخريطة جاهزة ويقرأها أو يملأها بتوزيعاته وظاهراته وقد ينتج في هذا العمل خرائط جديدة من صنعه وصنع يده وعلمه فهل يعد بذلك كارتوجرافيا؟

الرد قاطع: المعنى أن هناك نوعين من الخرائط: الخرائط الهيكلية، التي تنقل صورة الطبيعة والأرض إلى الورق، وترفع المكان، هي خرائط قاعدية، خرائط الأساس، Outlene maps, base maps يصنعها الكارتوجرافي بكرا ولأول مرة بالرفع والمساحة من الطبيعة قبله لا وجود لها، ولا قبل للجغرافي بها مهما حاول وهي أكيدا ليست عمله أو اختصاصه أو في قدراته.

الخرائط التوزيعية: هذه هي شغل الجغرافي بعد أن يوفر الكارتوجرافي الخرائط الهيكلية السابقة، يبدأ الجغرافي يوزع عليها ويملأ فراغها بالظاهرات الجغرافية المرادة، سكان، مدن، كثافات، تيارات هوائية كارتوجرامات.. إلخ, ولكن هذه ليست خرائط إنشائية بالمعنى البكر، أو إنشائية من الدرجة الثانية أو ثانوية Secondary maps.

بحكم طبيعتها الشمولية وحدودها الرهيبة (أو اللاحدود!) فإن التفاصيل في الجغرافيا تأخذ مكانا ومكانة وقيمة أقل بكثير مما لها في العلوم الأولية لماذا؟ أولا للاستحالة المطلقة في الإلمام بملايين التفاصيل من كل علم: ثانيا، لأنها بهذا الحجم والاتساع يستحيل الإفادة منها جيدا والتعامل معها بفائدة وجدوى ثالثا، خشية أن يفقد الجغرافي نفسه فيها وتضييع الجغرافيا في تيهها.

رابعا وأخير، لأن الجغرافيا تطبيقا علم استراتيجي علم الكليات، التفاصيل الدقيقة مجرد جسر بالنسبة إليها تصل منها إلى أهدافها الكلية والتعميمات الإقليمية والكوكبية إلخ...

التفاصيل إذن هي مجرد وسيلة لا غاية في الجغرافيا وجسر لا هدف.

الجغرافيا لا تكرر العلوم الأولية من أول وجديد كما هي نقلا وسطوا، وإنما "تكرر" هذه العلوم بمعنى: تنقيِّها وتعالجها.. إلخ إنه "تكرير" لا تكرار.

الجغرافيا لا تعيد العلوم الأولية في طبعة أو نسخة جديدة، وإنما هي "تعيد إنتاجها وخلقها تخرج منها جديدا، ليست إعادة طبع reprinting ولكن إعادة تحرير reediting.

إذن الجديد الذي تطرحه الجغرافيا وتضيفه إلى وعلى العلوم الأولية هو "الحبكة العلمية"، الوصفة، الخلطة، التركيبة - وذلك هو الجديد وتلك هي الإضافة.

***

الجيوفيزياء = بطن الأرض.

الجيولوجيا = قشرة الأرض [٦ - ٣٠ كم].

الجغرافيا = سطح الأرض (= la face de la terre وجه الأرض حرفيا)

كلمة الجغرافيا في هذا التصنيف تعني وتساوي الجيومورفولوجيا.

كلمة الجغرافيا الطبيعية كسابق قديم للجيومورفولوجيا كانت خطأ، وكان صوابا إسقاطها لأنها تعني، وينبغي أن تخصص فقط، للنصف الطبيعي من علم الجغرافيا جميعا كمقابل للجغرافيا البشرية.

وهذا هو الوضع الآن، وهو سليم تماما.

بتشبيه جسم الإنسان، فإن:

الجغرافيا = البشرة أو القشرة الخارجة.

الجيولوجيا = الأدمة أو القشرة الداخلية.

الجيوفيزيا = باطن الجسم (؟).

ما مكان كلمة فيزيوغرافيا في هذا الهيكل هل هو مجرد تركيب مزجي أو دمغ entraction لكلمتي "جغرافيا طبيعية".

ولكنها في هذه الحالة لا يمكن أن ترادف في الجغرافيا الطبيعية المعنى السليم الحالي وهو مرادف الجغرافيا البشرية.

إذن لا يبقى إلا أنها ترادف الجيومورفولوجيا بالمفهوم الحالي السائد. ولكنها انقرضت نسبيا وأزاحتها كلمة جيومورفولوجية تماما أو تقريبا.

***

الخريطة تقرأ إلى ما لا نهاية، تقرأ عشرات المرات، وكل مرة تكشف جديدا فيها مهما نظر الجغرافي في الخريطة وأمعن النظر وأطاله، فلن يستنفد كل ما فيها. كل نظرة = معلومة أو نظرية جديدة حيث الأولى الهيكلية خريطة أولية Primary الثانية تبدأ من وتؤسس على أساس الأول والجغرافي يبدأ حيث انتهى الكارتوجرافي (لا العكس طبعا).

وهنا، كما في مجالات وفروع الجغرافيا، ورغم العلاقة الحتمية الأزلية بين الجغرافيا والكارتوجرافيا، فإن الجغرافي يأخذ من الغير ليبني جغرافيته حتى الخريطة مستعارة، سلفة مؤقتة من الكارتوجرافي والجغرافي ناقل حتى على مستوى الخريطة نفسها.

الخرائط الهيكلية إذن هي سابقة للجغرافيا والجغرافي Pre- geograply.

والخرائط التوزيعية هي تالية ولاحقة لها Post- cartographic.

لهذا تبدو الجغرافيا بالنسبة إلى العلوم الأولية كالشعر بالنسبة للنثر.. في درجة التكثيف، في الجماليات، حتى في القيمة (فرغم أن الشعر أجمل من النثر عادة، فإن النثر أهم في الحياة جدا!).

الجغرافيا شعر العلم:

الجغرافيا هي شعر العلم الذي نثره العلوم الأولية.

العلم نثرٌ شعره الجغرافيا.

العلوم الأولية نثرٌ شعره الجغرافيا.

الجغرافيا، ذلك العلم المستحيل.

والجغرافي، هذا العالم المجنون!

هل هي محض صدفة أن عبء الجغرافي هو الأطلس الذي يحمل على كتفيه بل داخل رأسه، يستمد اسمه من أطلس إله الجبال الذي يحمل الكرة الأرضية على كتفيه؟

على الجغرافي أن يطيل النظر في الخريطة، يدقق النظر، يعاود النظر، يديم النظر فالخريطة لا تمنح أسرارها ومكوناتها من أول نظرة، بل لمن يعايشها ويعشقها ويراجعها.

الكمال العلمي، أي الكمال في العلم مستحيل، ولكنه في الجغرافيا بالذات أشد ما يكون استحالة الكمال الجغرافي لله وحده – الجغرافي الأعظم!

للآخرين، يبدو الجغرافي ضيفا غريبا من البشر، وفي ذاته، يبدو فعلا أنه كذلك!

***

هندسة المكان Geo- engineering هي الجغرافيا التطبيقية والهندسة الإقليمية regional engineering والجغرافيا الهندسية.

الجغرافيا هي علم المكان، كما أن التاريخ علم الزمان البعض من

المؤرخين يعرف علمه بأنه علم الزمان وليس علم الماضي بالمثل الجغرافيا: ليست علم الأرض بقدر ما هي علم المكان والفارق مفهوم.

الجغرافيا هي كل شيء ولا شيء! هذه نقطة الضعف الكبرى فيها – والقوة أيضا!.

إذا لم تكن الجغرافيا فوق الجميع، فإنها حول الجميع، وإذا لم تكن حول الجميع، فإنها تحت الجميع وفي جميع الحالات فأينما تكونوا تدرككم الجغرافيا!

والجغرافيا ككل علم تتألف من عنصرين:

التحصيل + التفكير.

التحصيل + التأصيل.

ليس هناك جغرافيا جيدة وجغرافيا رديئة؛ ثمة فقط جغرافي جيد وجغرافي رديء.

عملية الجغرافية هي أساسا عملية هندسة، عملية شكل هندسي، وتشكيل هندسي للمادة الخام هي "قص ولصق" إلى حد بعيد، ولكن عملية ألغاز صينية أكثر منها حرفنة (حرفية) + ذكاء علمي.

وحتى الآن، دراستنا لجغرافية مصر لا تزيد على مجرد خدش سطحي.

لا جغرافية حياة بدون جغرافية ميدان.

الجغرافيا الفكرية هي وحدها الجغرافيا الخلاقة Creative Geog.

المطلوب هو جغرافيا فكرية، بعد الفكر الجغرافي جغرافية الفكر، الجغرافيا المفكرة "الجغرافيا الفكرية Thoughtful Geog".

***

السياحة استثمار في البيئة الجغرافية كما أن النقل استثمار في الموقع الجغرافي.

***

الجغرافيا كمادة خام فقط ثقيلة باردة، سامة، كالرصاص!.

فقط حين يسلط عليها شعاع الفكر (الفكر هو شعاع الليزر في خامة رصاص الجغرافيا) تتحول إلى مادة شفافة مشعة صحية.

"المخيلة العلمية" هي أساس كل ابتكار وتجديد وخلق في العلم. هي مفجر الطاقة العقلية والإبداع العلمي (العلم إبداع).

وطبعا، هي شيء غير "الخيال العلمي" وقصصه. فهذا علم، وهذا فن.

***

إذا كان أبرز (وأروع ما في الكرة الأرضية أنها بتنوعها الشديد جدا في كل شيء الناس، المناخ، النبات، البيئات إلخ فإن أهمية هذا التنوع ووعاءه الأساسي هو التنوع الإقليمي، أي تنوع الأقاليم، أو تعدد الأقاليم ببساطة إن تعدد الأقاليم على وجه الأرض، وانقسام سطح الأرض إلى عديد من الأقاليم هو أكبر نعمة على الأرض وعلى الإنسان، ولولاها لكان عالما مملا منفرا إلى حد السخف وفقيرا إلى حد مدقع.

إن في اختلاف أقاليمكم، كما في اختلاف ألوانكم وألسنتكم إلخ، كما في معنى الآية بل إن اختلاف ألوانكم وألسنتكم إنما مرجعه وأصله وجماعه اختلاف أقاليمكم.

***

أقاليمي التي قدمتها في النظائر الجغرافية بين أوربا وآسيا[١]. ليست أقاليم

---

(١) انظر جمال حمدان أوربا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية، القاهرة ١٩٧٢ (الناشر).

جوفاء ولا صماء. إنها أقاليم هيكلية لا تركيبية، بمعنى أنها أقاليم تناظرية Ararallelism regions، شكلية أكثر منها موضوعية، هندسية أكثر منها جغرافية.

ولكن لأنها أقاليم هندسية Geometrie regions فإنها أكثر الأقاليم الجغرافية جغرافية.

ولكن لأنها أقاليم هندسية Geometrie regions فإنها أكثر الأقاليم الجغرافية جغرافية.

تنصب على الهيكل أكثر مما تصب في محتواه ومضمونه.

***

فكرة أوراسيا تحتاج إلى تعديل. هي تعبير جغرافي يساوي أوربا + آسيا، وذلك باعتبار أن الأولى امتداد أرض واستمرار جيوديزي للثانية.

هناك أيضا التناظر الجغرافي بين النظائر الجغرافية في كلِّيتهما.

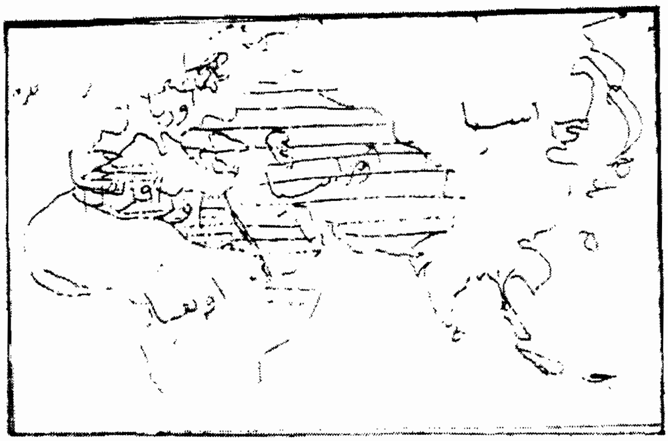
ولكن:

قد يكون الأصح أن نقصر مفهوم أوراسيا على جانب الجغرافيا البشرية دون الطبيعية هنا يصبح المفهوم وظيفيا وعضوي حقا.

وهنا تصبح المنطقة من شرق أوربا وغرب آسيا فقط هي أوراسيا الجديدة أو أوراسيا الصغرى، أو أوراسيا الفعالة، أو أوراسيا البشرية.

كيف؟ أساسا لأن السكان هنا انتقاليون بين الجنس الأبيض والأصفر، ليسوا أوربيين ١٠٠% ولا آسيويين ١٠٠%.

والواقع أن هذه قارة جنسية حقيقية في قلب العالم القديم – بل إن فكرة القارات الثلاث في العالم القديم إن هي إلا فكرة جيوديزية[1]. بحتة لا تعني من ثم كثيرا من الناحية الفعالة يمكن إعادة تقسيم قارات العالم القديم على النحو الآتي:



أوراسيا – منطقة اجتماع أوربا وآسيا من سهول آسيا الوسط والتركستان حتى البلقان والمجر، هي ثاني بوتقة جغرافية تاريخية، ولكنها من جنسين اثنين فقط هما الأصفر والأبيض – بينما كانت منطقة الشرق الأوسط الكبير السابقة من(٣) هي أجناس الأبيض والأصفر والأسود.

***

بعد كولمبس وكشف إضافة في العالم الجديد تفجرت أكبر بوتقة في التاريخ مهيمنا: أمريكا + جنوب إفريقيا نسبيا (استراليا لا) وهي سائرة إلى

---

(١) كلمة معربة وهي في الإنجليزية "geodesy"، أي علم هيئة الأرض ومساحتها. (الناشر)

جنس واحد بعد قرون مهما كان، وقريبا سيصبح الملونون أغلبية والبيض أغلبية كما أعلنوا إحصائيا.

آخر وأحدث وأصغر بوتقة هي أوربا قلعة الجنس الأبيض التاريخية الكبرى الآن تنهار بالتسرب والتسلل والجاليات الأجنبية من الجنوب فرنسا هي بروتوتيب أوربا، والباقي على الطريق، إنجلترا، ألمانيا, أسبانيا، إيطاليا. إلخ.

مع الحضارة الحديثة المذهلة بكل مكوناتها وعناصرها والتقارب الجغرافي والتضاغط الجغرافي- قرية كوكبية- ستصبح الأجناس البشرية أشد تلاحما وتداخلا واتصالا ببعض، وذوبانا واختلاطا حتى تنشأ يوما ما جنس سائد في العالم من اللابيض اللاملونين على غرار النمط المصري الفرعوني. ستبقى صورته طبعا لقرون. ولكن ستصبح الاستثناء لا القاعدة ومجرد حفريات تاريخية تذكر بماضي العلم الجغرافي.

إن إنثروبولوجية العالم تتحول من تعدد الأجناس قديما إلى جنس واحد وأحادية الجنس في المستقبل البعيد.

***

للمناخ (الغلاف الجوي) تأثير رهيب على طبيعة الإقليم الجغرافية (بصرف النظر عن الناس تماما).

فالغلاف الجوي يشكل ويعيد تشكيل الغلاف الأرضي كل يوم وكل ساعة ولكن أساسا كل فصل كيف؟ إن الإقليم الواحد (الأرض) يختلف في مظهره والإحساس به في فصل الصيف مثلا عنه في فصل الشتاء الأرض واحدة وثابتة، ولكن الجو متغير، ومعه يتغير مظهر وشكل وجو الأرض نفسها. فمصر صيفا، أرض مصر، وغيرها شتاء.

وقطعة من مصر شتاء قد تبدو كقطعة من إنجلترا مثلا إقليم الفن والبرودز يشبه الدلتا أو الدقهلية شتاء, ولكنهما يختلفان تماما صيفا بينما قد تتشابه دلتا الدقهلية صيفا مع دلتا المسسبي.

إن المناخ يشكل ويعيد تشكيل وجه الأرض ومظهرها وتأثيرها وانطباعها باستمرار وبقوة نادرة.

***

نفكر عادة في الجو باعتباره عنصرا "هوائيا" أي شديد الحركة والتقلب دائما – وبمفهوم المخالفة مع الأرض – أمنا الأرض – بالغة الصلابة والبيئات Restless atmosphere.

لكن الواقع أن الأرض في حالة حركة وانتقاض دائمة لا تنقطع كل يوم تحدث حرفيا ملايين الهزات الأرضية في كل الدنيا ترصد أو تفوق الرصد، ولكننا لا نحس بها قط. إذن الأرض في حركة دائمة باطنيا وسطحيا، ولكن دون خطر بالضرورة دائما! Our Restess Earth.

هناك إذن متوالية تصاعدية من حيث الحركة.

الجو شديد التقلب والحركة.

المحيط والماء متوسط الحركة والتقلب.

الأرض أقل حركة وتقلبا لكنها تتحرك وتتقلب.

***

الجنس البشري يتحول الآن ولأول مرة في التاريخ البشري والبشر إلى "جنس" واحد ووحيد! نعم جنس، الجنس البشري – بعد أجناس..

كيف؟

لقد مر العالم بأربع مراحل من الاختلاط الجنسي والامتزاج والتحاور (الدموي) أو بأربع بوتقات جنسية تاريخية: اثنتان قبل كولمبس والعالم الجديد، واثنتان بعده.

قديما في العصور القديمة: كان الشرق الأوسط الكبير (من إيران حتى المغرب) هو أول وأقدم بوتقة في التاريخ يحكم المواقع الوسطى بين تلاقي القارات الثلاث والأجناس الثلاث متحف موزايكو، بوتقة هذا هو البروتوتيب، الأركتيب والنموذج المصري القديم قمته، وهو الآن بوصلة ومسودة العالم المعاصر والمستقبل.

***

كل البيئات الطبيعية سكانها هم "أبناء الطبيعة" بدرجة متفاوتة إلا المدن وسكان المدن – أيضا بدرجة متفاوتة تاريخيا ثم جغرافيا, فالمدن الحديثة الضخمة مقتطعة من الطبيعة، منفصلة عنها إلى حد بعيد أو بعيد جدا (مع ذلك فسكان الضواحي وهوامش المدينة يقتربون نسبيا من الطبيعة). فالمدينة طبيعة مصطنعة، "طبيعة ثانية".

(حتى سكان الريف هم أبناء الطبيعة، وإن لم يكونوا بدرجة أبناء الصحراء أو الجبال أو الغابات إلخ).

– الرأسمالية هي نهاية التاريخ (فوكوياما) حسنا، هي نهاية التاريخ بمعنى نهاية الإنسان نهاية البشرية. الرأسمالية هي يوم القيامة!.

ومصر المعاصرة انتهت إلى الرأسمالية المسعورة, وهذه هي نهاية التاريخ – نهاية مصر! الرأسمالية كنهاية التاريخ لا تعني إلا أنها "نهاية الجغرافيا"!

كلا، يافوكوياما، وأنصاره: القضية ليست "نهاية التاريخ" بل "نهاية الجغرافيا"!.

إن الأساس القاعدي الدفين وغير المنظور القومية (وإن كان منظورا للعيان) هو العنصر أو الجنس أو العرق.

القومية عنصرية أساسا والجنسية هي الجنس نهاية ولا خداع في هذا ولا خطأ. لماذا؟ إن القومية التي نعرفها ونسميها هكذا اليوم هي بحذافيرها ما كان يسميه ابن خلدون في أيامه العصبية بتاعة العصور الوسطى هي جوهر قومية العصر الحديث.

***

التقسيم التقليدي الثلاثي لكتل قارات العالم القديم يخفي الحقائق الجغرافية ويبرز الشكليات فقط.

إنه تقسيم جيوديزي لا جغرافي وهي "قارات جيوديزية" لا قارات جغرافية.

أما القارات الجغرافية الحقيقية والفعالة في العالم القديم فهي (٥): أوربا، أوراسيا، أورإفريقيا، إفريقيا، آسيا.

***

فكرة تقسم العالم إلى (٣) عوالم رئيسية (الأول، الثاني، الثالث) ليست دقيقة تماما. فالفكرة ليست إقليمية صارمة جامعة مانعة، بقدر ما هي فكرة قطاعات متداخلة بنسب مختلفة أي تركيبة أو توليفية من القطاعات الثلاث بنسب مختلفة.

فالعالم الثالث، موجود في كل من العالمين الأول والثاني، ولكن بنسب قليلة، منها يصل إلى قمته في العالم الثالث. الذي لا يخلو من شرائح من العالمين الأول والثاني (طبقية أو مكانية).

وهكذا العالم الثاني كان (ولا يزال) يضم شرائح من العالم الأول والثالث بنسب مختلفة فكان الاتحاد السوفييتي فعلا مكونا منه.

(٣) نطاقات أو مجالات من العوالم الثلاث.

وهذا كله ما يؤكد أن فكرة الأقاليم البشرية في العالم كله هي أقاليم جغرافية نسبية جدا مختلطة كثيرا، وليست صارمة قاطعة قط. (وهذا طبيعي).

لم تعد في العالم (الديناميكي جدا المتباغض جدا) أقاليم جنسية نقية أو متجانسة كله مختلط تقريبا. حتى أوربا لم تعد بيضاء. وكذلك استراليا بعد سياسة all white Australia.. إلخ.

بينما كان العالم الجديد كله (والآن + كثيرا) ملونا مختلط الأجناس منذ البداية – وقريبا سيصبح أغلبية أمريكا (والولايات المتحدة) من الملونين أو المخلطين!.

إن الجنس الأبيض لا ينقرض في العالم فقط, ولكنه ملون في عقر داره!

* * *